ثقافة الخلفاء العباسيين في مرحلة ما بعد المأمون (من المعتصم حتى المهتدي ٢١٨ - ٢٥٦هـ)

د. عبدالرحمن بن علي السنيدي*

مقدمة :

يتناول البحث دراسة الجوانب الثقافية عند الخلفاء العباسيين في مرحلة ما بعد المأمون من المعتصم حتى المهتدي بالله . والجوانب الثقافية المقصودة بالدراسة ، تشمل التأديب المبكر الذي تعرض له الخلفاء في مستهل حياتهم ، والمؤثرات على ثقافة الخلفاء ، ومكونات تلك الثقافة الكامنة في شخصيات الخلفاء ، والآثار الثقافية التي انتجوها .

لقد حصرت هذه الدراسة اهتمامها بالخلفاء بعد المأمون بدءاً بالمعتصم بالله وانتهاءً بالمهتدي بالله ، فلقد كان عهد المأمون مما يقف عنده المهتمون بالتاريخ الثقافي والعلمي للأمة الإسلامية ويرون فيه عهداً حافلاً بالمنجزات ذات الشأن والأهمية ؛ كما أن تلك الشخصية التي أدارت الدولة تميزت بمستواها الثقافي العالي وقدراتها الراقية - وإن شاب ذلك ميول بدعية جانبت معتقد أهل السنة والجماعة - ولهذا فلا غرابة أن نبدأ بما بعد المأمون لنتعرف

* بكالوريوس من قسم التاريخ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠١هـ .
- ماجستير في التاريخ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٦هـ .
- دكتوراه في التاريخ الإسلامي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٢هـ .
- يعمل الآن أستاذاً مشاركاً في قسم التاريخ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

على حظ خلفائه من الثقافة والعلم ، وما يسكن في ذواتهم من الميول والخبرات المعرفية وما يطرق أسماعهم وأبصارهم ومدركاتهم من المؤثرات على ثقافتهم . وجاء تحديد أفق النهاية بالخليفة المهتدي بالله العباسي ؛ لأن ذلك الخليفة الصالح يمثل آخر خلفاء ما سمي بمرحلة الفوضى السياسية في سامراء .

يميز هذه المرحلة أن الخلفاء فيها أداروا دولتهم من بيئة ثقافية جديدة هي سامراء ، وكانت المؤثرات الثقافية التي أحاطت بهم متشابهة ومتقاربة إلى حد كبير ، واتسمت هذه المرحلة بظهور نفوذ قادة الجند الأتراك ؛ ذلك النفوذ الذي لم يظهر بصورة قوية إلا بعد الواثق ، إلا أنه كان قد نما وتأسس واكتسب العديد من المواقع الإدارية والسياسية في عهدي المعتصم والواثق .. لقد ترك ذلك النفوذ أثره على ثقافة بعض الخلفاء سلباً أو إيجاباً ؛ كما أن التأسيس الفعلي له إنما تم في بداية هذه المرحلة مما سيكون مدعاة للتساؤل هل هناك قصور في ثقافة بعض الخلفاء التاريخية والسياسية ؟ وذلك في آخر البحث .

إن البحث يركز على ثقافة الخلفاء وما يستتبع ذلك من عناصر تتعلق بخبرات الخلفاء المعرفية ووسائل اكتسابهم للثقافة .. وعليه فإن الدراسة غير معنية بمنجزات عهود الخلفاء الثقافية ومظاهر الحياة الثقافية في البيئة الجغرافية المحيطة بهم . وهنا يشير الباحث إلى عدد من الدراسات القيمة التي تناولت الأوضاع السياسية في هذا الفصل من تاريخ الدولة العباسية ورصدت ظاهرة النفوذ التركي المتنامي ولعل من أبرز تلك الدراسات :

كتاب «نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء ، ٢٢١ - ٢٧٩هـ» للدكتور عبدالعزيز اللميلم ، وعنيت دراسات أخرى بدراسة

أوضاع الخلافة العباسية والاتجاهات السياسية والحضارية في فترة بعض الخلفاء..

ومما اطلعت عليه في هذا الباب دراستان عن عهد المتوكل على الله هما :

١ - «مطلع العصر العباسي الثاني الاتجاهات السياسية والحضارية في خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ)» للدكتورة نادية حسني صقر .

٢ - «الخلافة العباسية في عهد المتوكل على الله ، دراسة تاريخية وحضارية» وهي رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت في كلية العلوم الاجتماعية بالرياض عام ١٤٠٥هـ أعدها الطالب عبدالله الناجم وليس في هاتين الدراستين موضوعات تتناول ثقافة الخليفة المتوكل ، وعلومه والمؤثرات على ثقافته .

هذا وقد اقتضت خطة البحث تقسيمه إلى عناصر وفقرات ، حيث نبدأ أولاً بفقرتين تشكلان مدخلاً لهذه الدراسة هما الثقافة والخلافة ، والتعليم والتثقيف عند العباسيين ، يلي ذلك دراسة «أبرز المؤثرات على ثقافة الخلفاء» بادئين بعاملين مهمين هما :

١ - الأسرة وجو النشأة .

٢ - المعلمون والمؤدبون .

وبعد ذلك تتناول الدراسة مؤثرات أخرى أثرت على أفكار وثقافة الخلفاء، من ذلك: ذوو النفوذ والتأثير السياسي، وجماعات الندماء والأطباء والمعالجين، والمذاهب والنزعات الفكرية ، ثم تطرقت الدراسة بعد ذلك إلى بعض المواقف الدالة على حرص الخلفاء على اكتساب الثقافة تحت عنوان «الخلفاء والحرص على اكتساب الثقافة» ، ثم تناولت الدراسة بعد ذلك مكونات الثقافة عند الخلفاء وعمّا جرى استعراض مكونات ثقافة الخلفاء موزعة على الفنون الرئيسة

التي نعدها من مكونات تلك الثقافة ، وتبع ذلك تناول الآثار الثقافية للخلفاء بإيجاز واختصار، تلك الآثار التي عبرت عن مكونات الثقافة التي يُعد الحديث عنها مكملاً للحديث عن المكونات وفي نهاية البحث كان لابد من التساؤل وقد شهدت مرحلة ما بعد المأمون التطور المتسارع لنفوذ الأتراك على الخلافة هل تقديم الأتراك وتمكينهم يعكس خللاً في الثقافة التاريخية والسياسية عند الخلفاء، وهل نبهت الخلافة في بداية هذه المرحلة من قبل العناصر المؤثرة عليها هل نبهت إلي المخاطر المستقبلية المترتبة على تزايد نفوذ الأتراك .. ؟

الثقافة والخلافة :

تعني الثقافة الحذق والفطانة والتزود بفرع من المعرفة ومما يراد الآداب والأفكار والصناعات والعلوم ومجموع العادات والأوضاع الاجتماعية والقيم الذائعة في مجتمع معين [(١)] . ونريد بها في هذا البحث العلوم والمعارف التي اكتسبها الخلفاء - في حقبة موضوع البحث - وهي علوم ومعارف كانت سائدة في المجتمع الإسلامي يومئذ الذي كانت حواضره الرئيسة تعيش حالة من النمو والازدهار في الميدان الثقافي .

وإذا كان من المسلم به أن الثقافة يحتاجها الأفراد "العاديون" فكيف بمن تناط بهم مسؤولية القيادة والخلافة (وهي مسئولية قيادية عظمى) ؟

لا شك أن الثقافة بما تحويه من معلومات ومعارف ونظم مهمة لمن تناط بهم تلك المسؤوليات ، فالإلمام بقدر مناسب من تلك العلوم والمعارف مما يمكنُ

---

(١) انظر : المعجم العربي الأساسي للناطقين بالعربية ، تأليف جماعة من كبار اللغويين العرب ، إصدار المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ، تونس ١٩٨٩م ، ص٢١٤ .

- محمد الباشا ، الكافي معجم عربي حديث ، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع ، ط٢ ، ١٤١٣هـ .

الخليفة من إدارة دولته ، أو إقليمة بفاعلية ويساعده على حل المشكلات المستعصية. وعبر بوابة الثقافة يتمكن الخليفة أو القائد من التعرف على الطرق الصحيحة لإدارة دولته، ومواجهة جموع الناس وقادة الرأي .. ومن خلال تلك البوابة يتواصل الخليفة أو القائد فكرياً مع أبناء المجتمع بمختلف طبقاته .

ويعد اطلاع الخليفة على الثقافة الشرعية أمراً مطلوباً ليتمكن من التعرف على أحكام الإسلام التي يقوم على تنفيذها ، ويوجه سياسة الدولة في حدودها .. ولهذا عدّ العلمُ المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام من الشروط المعتبرة في أهل الإمامة عند من كتب في الأحكام السلطانية [1] ، وعلى كل فإن ثقافة الذين بيدهم زمام الأمور وبخاصة الخلفاء الذين أداروا الدولة بأنفسهم ، لها أثرها في تسديد مسيرة الخليفة أو القائد مع الحكم ، وإكساب تلك المسيرة السمة الحضارية .

وهذا الأثر لا نبالغ في تقدير عمقه وتأثيره على اتجاهات الخليفة وسياساته فهناك مؤثرات كثيرة على تلك الاتجاهات والسياسات .. ليس هنا محل بسطها وتناولها .

كذلك لا مناص من القول بأنَّ عدداً من المفكرين .. رأوا أنَّه لا يطلبُ فيمن تناط بهم مسؤولية القيادة يكون راسخاً في الثقافة وأنه على نسبة مُفرطة من الذكاء؛ لأنه قد يكون لذلك أثر سلبي على سياسات القائد أو الحاكم؛ لأنه يكلف الرعية فوق طاقاتها[2]. ورأى آخرون أن مما لا ينبغي أن ينشغل به القياديون

(١) انظر : الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص٦ .

(٢) انظر : ابن خلدون : المقدمة ، ص٢٣٧ .

من الخلفاء والسلاطين التبحر في غوامض المسائل والإغراق في طلبها ، لكن ذلك لا يغني أن يصبح الخليفة خالي الوفاض من المعارف والعلوم وسائر مكونات الثقافة لأن إحرازه لقدرٍ مناسب من الثقافة مما يُعينُه في أداء دوره المناط به[1] .

التعليم والتثقيف عند العباسيين :

تعد الأسرة العباسية أسرة عريقة في العلم الشرعي فمن ذا يجهل المكانة العلمية لعبدالله بن عباس رضي الله عنهما وإلمام عدد من أبنائه وأحفاده بعدد من العلوم ؟ .. لا غرابة أن يستمر العباسيون بعد قيام دولتهم في تثقيف أبنائهم يحدوهم إلى ذلك عدة عوامل بالإضافة إلى أصالة أسرتهم وعراقتها في المجال العلمي فمن تلك العوامل الرغبة في تأهيل الأبناء للحكم والنهوض بمسئولياته .. وما يراه العباسيون من اهتمام عند منافسيهم بالتعلم والعلم ؛ لأن بعض الفرق التي لا ترى شرعيتهم في الخلافة ، أخذت تؤسس لنفسها حلقات علمية مغلقة يقودها ويوجهها أئمة تلك الفرق التي اهتمت بالبحث والمناظرة مما أشعر العباسيين بضرورة توجيه قدرٍ من الاهتمام إلى العلم والثقافة لئلا يظهروا أمام الناس بمستوى أقل من منافسيهم .

لقد أسند تعليم أبناء الخلفاء إلى معلمين ذوي كفاءة ومقدرة عرفوا بالمؤدبين ، وثق بهم الخلفاء وزودوهم بالوصايا التي تظهر حرصهم على تربية أبنائهم وإعدادهم إعداداً سليماً من ذلك .. الوصية التي أوصى بها الرشيد المؤدب علي بن الأحمر ، ومما جاء فيها : «إن أمير المؤمنين دفع إليك مهجة

(١) انظر ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص١٨ .

نفسه وثمرة قلبه وصير يدك عليه مبسوطة ومقالتك فيه مصدقة وطاعتك عليه واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعلمه السنن والآثار وَرَوِهِ الأشعار وبصره مواقع الكلام ومره بالرزانة في مجلسه والاقتصاد في نظره وسمعه ، فلا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيدها وكلمة نافعة يعيها ويحفظها من غير أنْ تخرق به فتميت ذهنه وتمله ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه »[1] .

إنَّ حرص الآباء من الخلفاء على تربية أبنائهم وإلحاقهم بِكُتَّاب وبخاصة في دار الخلافة هو القاعدة التي اتبعتها الخلافة مع امتدادها في المستقبل ، لا يستثنى من ذلك أحد ، وقد يرى الخليفة أن ابنه قد استحكمت فيه عدم الرغبة في التعلم في الكتاب فيأمر بصرفه عنه دون أن يؤدي ذلك إهمال تام في تثقيفه يصدق ذلك على المعتصم بن الرشيد فقد ذكرت بعض المصادر أنه كان يدرس في المكتب مع إخوته ومعهم جماعة من الخدم الصغار فتوفى أحدهم فقال المعتصم : استراح والله من الكُتَّاب فسمع الرشيد ذلك فأمر بإخراجه من المكتب وقيل إنه قال : والله يا بني لا تذهب بعد اليوم أبداً إلى الكتاب[2] ، لكن الرشيد لم يهمل تعليم المعتصم فقد ورد أنَّه كان له مؤدب[3] .

ويؤكد بعض الباحثين أن الرشيد اعتنى بابنه وعهد إلى عدد من المؤدبين القيام

(١) البيهقي : المحاسن والمساوي ، ص٥٧٥ .

(٢) انظر ابن العمراني : الانباء في تاريخ الخلفاء ، ص١٠٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ، ص٢٩٥ ، الحصري : زهر الآداب ، جـ٢ ، ص٧٨٥ ، ويقول أبو القاسم الزجاج عن قصة المعتصم مع الكتاب « .. وهذا شيئ يحكى من غير رواية صحيحة .. انظر المصدر نفسه .

(٣) انظر : ابن الجوزي : مناقب الإمام أحمد ، ص٣٢٣ .

بتأديبه، لكنه ترك له حرية التعلم حتى لا تكون النتائج مدمرة[1] وهو رأي له وجاهته يؤيده ما عرف عن الرشيد من آراء وأفكار تربوية وتعليمية، وقد ورد عند ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد ما يفيد أن «صالح الرشيدي» كان من مؤدبي المعتصم .. ولما كان مخالفاً له في عقيدة القول بخلق القرآن أبعده وعاقبه[2] .

لقد أبدى الخلفاء الذين جاؤا بعد المأمون الحرص نفسه الذي أبداه الخلفاء الأولون على تربية وتهيئة الأبناء وتثقيفهم، فالمعتصم يشتد في مطالبة الواثق بالتعلم حتى إذا شكا منه معلمه أمر بأن يضرب بالمقارع [3] ، ويطلب وهو في مجلس الخلافة من الواثق أن يأخذ في اعتباره بعض الأوصاف الحسنة التي قيلت في ذلك المجلس[4]، ويطلب الواثق وهو على سدة الخلافة من العلامة المازني امتحان بعض المؤدبين قائلاً له : إن هاهنا قوماً يختلفون إلى أولادنا فامتحنهم فمن كان منهم عالماً ينتفعُ به ألزمناه إياهم ومن كان بغير هذه الصفة قطعناه عنهم[5] مما يعكس اهتمام الواثق بأن يكون المؤدبون في مستوى علمي رفيع .

المؤثرات على ثقافة الخلفاء :

تأثرت ثقافة الخلفاء بعوامل تربوية واجتماعية وثقافية بعضها يراد منه في الأساس أن ينمي ثقافة الخليفة ، وهناك عوامل هي عبارة عن أجواء وظروف صحبت الخلفاء وأثرت على ثقافتهم وسلوكهم .

---

(١) انظر : محمد عيسى صالحية ، مؤدبو الخلفاء في العصر العباسي الأول ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، المجلد الثاني ، ١٩٨٢م ، الكويت ، ص٦٠ .

(٢) ص٢٣٢ .

(٣) التنوخي ، نشوار المحاضر ، جـ٨ ، ص١٧ - ١٨ .

(٤) انظر الطبري ، تاريخه ، ص٩ ، ص١٢٢ .

(٥) انظر الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص٩٢ .

وبادئ ذي بدء سوف نتطرق إلى عاملين مهمين قد يمتد تأثيرهما إلى ما بعد مرحلة الصبا لكن تأثيرهما القوي إنما كان في مرحلة النشأة والصبا ، هذان العاملان هما الأسرة وجو النشأة .. والمؤدبون والمعلمون .

ا - الأسرة وجو النشأة :

مر بنا أن الآباء من الخلفاء حرصوا على تربية أولادهم وتثقيفهم ، وواكب ذلك الحرص دقة في اختيار المعلمين تحديداً لمواد الثقافة التي رأها الخلفاء لازمة وضرورية لأبنائهم أو من يشرفون على تربيتهم كالمأمون الذي أشرف على تربية ابن أخيه الواثق[1] ، كما واكبه عناية بالمؤسسات الثقافية الداعمة لمسيرة التربية والتثقيف في قصور الخلفاء مثل بيت الحكمة وخزائن الكتب الملحقة بدور الخلفاء[2] .

والأمهات هن جزءٌ أساس من دائرة الأسرة لهن أثرهن في تربية أنجالهن فلقد مارس بعض الأمهات قدراً من التأثير الثقافي على أولادهن .

تبرزفي هذا الميدان والدة الخليفة المتوكل على الله «شجاع» وقد وضح صلاحها .. عندما نراها توصي ولدها بالإمام أحمد حيث تقول له : «اللّه .. اللّه في هذا الرجل فليس هذا ممن يريد عندك[3]» ويشعر قولها بأنَّ هذه الأم وهي من أصول تركية[4] قد مارست التأثير الإيجابي على ابنها ولعلها كانت

---

(١) انظر : ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١١١ .

(٢) انظر : كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة في العراق ، ١٩٤٨م، مطبعة المعارف ، بغداد ، ص١٠٥ ، ١٢٢ .

(٣) حنبل بن إسحاق : محنة الإمام أحمد ، ص١٠٧ .

(٤) ابن حبيب ، المحبر، ص٣٤ ، ويذكر المسعودي وإنها أم ولد خوارزمية ، مروج الذهب ، جـ٤ ، ص٨٥.

تغرس فيه الميل نحو الاتجاه الذي تمثله علوم الإمام أحمد وسيرته وذلك منذ نعومة أظفار ولدها .. ومن الأمهات المؤثرات على ابنائهن والدة المعتز بالله «قبيحة» التي اهتمت بتربية ولدها المعتز وتهذيبه وتعليمه(١) .

استمر تأثير والدة المعتز بالله .. على ابنها وبلغ أوجه في فترة خلافته البائسة (٢٥٢ - ٢٥٥هـ) وإلى ذلك يلمح الشاعر عندما يقول :

وليس ينفذ أمـــراً في رعيته حتى يشاور فيه بنت بُقراط(٢).

ويعننينا هنا التأثير في المجال الثقافي نجد أن السيد قبيحة تسهم في الحيلولة بين ابنها وبين بعض رموز البطانة الصالحة وبالذات محمد بن الواثق (الخليفة المهتدي بالله فيما بعد) يذكر البيهقي أن محمد بن الواثق كان يكثر الجلوس عند المعتز فيرجع المعتز إلى قوله في أموره وما يمضيه وما يبرحه وكان كثير المعارضة لأم المعتز فيما تأمر به وتنهي .. فلم تزل بالمعتز إلى أن أمر بإحداره إلى بغداد على كره منه(٣) .

والمعروف أن محمد بن الواثق ممن يمتلكون ثقافة شرعية مميزة بين أبناء الخلفاء ولا يخفى أن وجوده بالقرب من سلفه المعتز مما يدعم ثقافته الشرعية ويُسهم في تسديد أعماله وقراراته .

ولا يمكن تجاهل دور الأمهات غير العربيات في التأثير على خلفاء هذه المرحلة ، ويلحق بهن طبقة مماليك القصر من جواري ومستخدمين يَغْلبُ أن يكونوا من الفرس أو الترك أو الروم . وبحكم أن الأبناء يخالطون تلك العناصر

(١) انظر مصطفى جواد : سيدات البلاط العباسي ، ص٤٧ .

(٢) النديم : الفهرست ، ص١٢٧ .

(٣) البيهقي : المحاسن والمساويء ، ص٥٣٨ .

التي تحف بهم فإنهم يتلقون العادات والطبائع عنهم بوساطة جميع الحواس سمعاً وبصراً وإدراكاً ، وهكذا تسهم تلك العناصر في ترسيخ العادات والثقافات الأجنبية في نفوس الأبناء ، ومع استمرار تدفقها على البلاط الخلافي يستمر الدفع بأنماط ثقافية وسلوكية مغايرة للتربية العربية الإسلامية لتأخذ طريقها إلى عقول الأبناء وممارساتهم .

ومن ثمار ذلك أنْ نرى امتداد السفه والمجون إلى أبناء الأسرة العباسية نفسها ومثال ذلك أبو العبر الهامشي العباسي[١] الذي تذكر بعض المصادر عنه أنه ترك الجد وعدل إلى الحمق وارتضى أن يجالسه المُجَّان وأن يقول أشعاراً مفرطة في السقوط[٢] .

٢ - المعلمون والمؤدبون :

ينهض المعلمون والمؤدبون بعبء تعليم أبناء الخلفاء الذين يُهيَّؤون لتولي سدة الخلافة .. بشكل مقصود ومن خلال مجهود منظم ومتتابع يخضع لإشراف الخليفة[٣] القائم أو وزيره[٤] ، أو إحدى الشخصيات المسئولة في الدولة[٥] ، ولا يخفى أن لهؤلاء المؤدبين تأثيرهم على ثقافة الخلفاء لا يقتصر الأمر على أن

---

(١) هو أبو العباس محمد بن أحمد بن عبدالله بن عبدالصمد بن علي العباسي . ترك الجد وعدل إلى الحمق والشهرة كان يجلس بسر من رأى في مجلس يجتمع فيه المُجَّانُ يكتبون عنه ، الصولي : أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، ط٣ ، بيروت ، ص٣٢٣ ، ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) انظر الصولي : المصدر نفسه ، ص٣٢٣ ، ٣٢٦ .

(٣) أشرف المأمون على تعليم الواثق ، انظر ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١١١ .

(٤) على سبيل المثال : أمر المعتصم الوزير محمد بن عبدالملك الزيات أن يعاقب الواثق بناءً على شكوى المعلم فضربه ثلاث عشرة مقرعة ، التنوخي : نشوار المحاضرة ، ص١٨ ، ص١٧ .

(٥) مثل إيتاخ بالنسبة للمتوكل ، انظر ابن الأثير : الكامل : جـ٧ ، ص٤٣ .

يكونوا فقط مصدراً للمعلومات والمفاهيم الأولية الدينية واللغوية بل قد يمتد إلى التأثير إلى السلوك والاتجاهات .

وتقدمُ لنا المصادر عدداً من علماء ذلك العصر ممن نهضوا بعبء تأديب بعض الخلفاء وأولادهم ومن هؤلاء :

- هارون بن زياد مؤدب الواثق الذي يقول عنه «هذا أول من فتق لساني بذكر الله وأدناني من رحمة الله[1]» .

أبو جعفر الضبي وإبراهيم بن سعدان النحوي ويعقوب بن إسحاق السِّكِّيت وهؤلاء أدبوا أولاد المتوكل[2] .

وهنا لابد أن نذكر أن المتوكل قد قدم صورة نموذجية لاهتمام خلفاء هذه المرحلة بتأديب أبنائهم ومن صور هذا الاهتمام أنه طلب من بعض العلماء الوافدين على سامراء وهو الزبير بن بكار أن يعلم أحد أبنائه فقه أهل المدينة ، وقد حاول أن يحدِّث الإمام أحمد رحمه الله ابنه المعتز .. إلا أنه لم يروله شيئاً لأن الإمام كان قد عاهد الله في وقت خروجه من بغداد ألا يحدث أحداً من الناس بحديث[3] .

لقد أكسب المؤدبون خلفاء المستقبل وأمراء البيت العباسي إتقان قراءة القرآن الكريم ؛ لأن ذلك من الأساسيات التي عنى بها الخلفاء وهم يشرفون

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جـ١٤ ، ص١٧ .

(٢) انظر : - الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٩ ، ص٣٧١ .

- ياقوت : معجم الأدباء ، جـ١ ، ص١٥٢ ، ص١٨ ، ص٢٧٢ ، جـ٢٠ ، ص٥٠ .

(٣) انظر : حنبل بن إسحاق : ذكر محنة الإمام أحمد ، ص١٠٧ . وكان مؤدب المعتز (الضبي) قد قدم الإمام أحمد إلى المعتز قائلاً : اصلح الله الأمير هذا الذي أمر أمير المؤمنين أن يؤدبك .

على تربية أبنائهم أو أبناء إخوانهم كما تبين ذلك وصية المأمون لمؤدب الواثق[1].

كذلك أكسب المؤدبون من انتدبوا لتأديبهم اللغة السليمة وعلموهم النحو العربي ، فحدوا بذلك من تأثير اللغات الأعجمية على ألسنتهم ومكنوهم من استعمال الأسلوب السليم ، لا سيما وقد عاشوا في جو مشبع بالثقافات واللكنات الأعجمية ومعلوم أن التربية قد تَقَصَدت ذلك الهدف أي تعليم النحو العربي .. فلا غرابة بعد ذلك أن يعمل حذاقُ النحو واللغويون لدى البلاط العباسي مؤدبين للأبناء .

ومن الفنون التي اكتسبها بعض الخلفاء في مرحلة التأديب وعلى يد المؤدبين وصايا بعض الحكام الساسانيين وتراثهم السياسي فمن بين ما تلقاه الواثق من مؤدبه عهد الملك الساساني أردشير بن بابك الذي يحتوي على وصايا جامعة ذات أهمية لرجال الحكم والسياسة[2] ، نفهم ذلك مما أورده المبرد في كتابه الفاضل أن المأمون أمر معلم الواثق أن يقرئه عهد أردشير وأن يحفظه كتاب كليلة ودمنة[3] ، وقد حفظ الواثق عهد أردشير في مرحلة مبكرة من حياته[4] ، وإذا كانت مواهبه واستعداداته الفطرية من العوامل التي مكنته من حفظ ذلك الأثر الساساني القديم فَإِنَّ مؤدبه الذي علمه وأقرأه ذلك العهد .. لاشك أن له أثره في حفز الواثق في صباه على الإقبال على دراسة ذلك العهد وحفظه.

وبوساطة المؤدبين والمعلمين اكتسب بعض الأبناء ثقافة شرعية مميزة

---

(١) المبرد : الفاضل ، ط١ ، دار الكتب المصرية ، ١٣٧٥هـ ، ص٤ .

(٢) انظر : إحسان عباس ، مقدمة تحقيق كتاب عهد اردشير ، ص٢١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٤ .

(٤) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص١٠٩ .

ومن هؤلاء أبو عيسى بن المتوكل الذي سمع حديثاً كثيراً وعرف شيئاً من الفقه وكان يلزمه جماعة من العلماء لا يفارقونه[١] ومثله في ذلك الخليفة المهتدي بالله الذي تكشف سيرته وبعض أحاديثه عن ثقافة شرعية متينة وسيأتي مزيد بيان لذلك.

وعبر برامج التأديب حاول بعض المؤدبين تهذيب سلوك أبناء الخلفاء من خلال تعريضهم لبعض المواقف التي لم يعتادوا عليها قاصدين بذلك غرس بعض القيم والفضائل في نفسية المتربي (ابن الخليفة) ، نجد مصداق ذلك فيما يروي عن المؤدب «أحمد بن عبيد بن ناصح» وهو ممن أدب المعتز حيث يروى عنه أنه حط أثناء التأديب من رتبة المعتز وأخر غذاءه قليلاً وضربه بغير ذنب مما أحفظ المتوكل وأغضبه فأحضره وقال : لم فعلت هذا بالمعتز ؟ فقال : بلغني ما عزم عليه أمير المؤمنين (في إشارة إلى إرادة أبيه توليته العهد) فحططت من منزلته ليعرف هذا المقدار فلا يعجل بزوال نعمة أحد وأخرت غداءه ليعرف الجوع إذا شكي إليه وضربته لغير ذنب ليعرف مقدار الظلم فلا يعجل على أحد فاستحسن المتوكل ذلك وأجاز المؤدب بعشرة آلاف[٢] .. ومعلوم أن التهذيب السلوكي من المهام التي قد تناط ببعض المؤدبين يتجلى ذلك في قول هارون الرشيد لمؤدب أحد أبنائه : «.. امنعه الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه[٣] ..» .

لقد تميز التعليم الموجه نحو أبناء الخلفاء والذين يُهَيُّؤون للخلافة وقد

(١) انظر الصولي : أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق ، ص١٠٤ .

(٢) السيوطي : بغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة ، جـ٨ ، ص٣٣٣ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ٣/٣٦٢ .

يَتسنم بعضهم زمامها بعد سنين بمجموعة من الميزات عن التعليم المتاح لأبناء العامة[1] من ذلك ما يلي :

١ - انفتاحه على بعض العلوم والفنون التي لا يدرسها أبناء العامة [2].

٢ - يخضع ذلك التعليم لإشراف الدولة بصورة مباشرة .

٣ - من أهداف ذلك التعليم تأهيل المتعلم لممارسة الحكم وإعداده لحمل عبء الخلافة.

٤ - يقوم بالتأديب والتعليم نخبة من لغويي العصر وأدبائه وقد مر بنا بعض منهم.

لقد اهتم الخلفاء بذلك التعليم الخاص الموجه نحو الأبناء لأهميته في تأهيل الأبناء ولما له من أثر في تحقيق نقل قيم الآباء إلى الأبناء ومعلوم أن التربية والتعليم وسيلتان أساسيتان في عملية انتقال القيم والثقافة من جيل إلى آخر ولا طريق غير التربية والتعليم يحمل هذه المهمة ؛ لأن تلك القيم ليست مثل الخصائص «الجينية والبيولوجية» التي ينقلها الابن عن أبيه .

مؤثرات أخرى :

وإضافة إلى الأسرة وجو النشأة هناك مؤثرات لها أثرها على ثقافة الخلفاء في المرحلة التي يكون هؤلاء الخلفاء قد تربعوا على عرش الخلافة ، فهناك ذوو النفوذ والتأثير السياسي والندماء إلى جانب بعض الجماعات المحيطة بالخليفة والملصقة به وسوف نتناول أبرز هذه المؤثرات في السطور التالية :

---

(١) يقسم الجاحظ (١٥٠ - ٢٥٥هـ) المعلمين إلى فئات فمنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، انظر : البيان والتبيين ، جـ١، ١٤٠ .

(٢) انظر المبرد : الفاضل ، جـ٤ .. حيث يرد فيه ذكره «عهد اردشير» كأحد الكتب المطلوبة أن يدرسها الواثق، كما مر بنا ، راجع أيضاً : ملكة أبيض: التربية والثقافة العربية الإسلامية، ص١٦٨، ١٩٨.

أ - ذوو النفوذ والتأثير السياسي :

ذوو النفوذ والتأثير هم أولئك الأشخاص النافذون النشطون في مجال إدارة شؤون الدولة ، ومنهم أصحاب المكانة والمنزلة عند الخليفة ممن لهم خلفية ثقافية أو فكرية .

ففي عهدي المعتصم والواثق (٢١٨ - ٢٣٢هـ) يعدُ أحمد بن أبي دُأود رجل المشورة الأول وذلك بناء على وصية المأمون التي أوصى بها أخاه المعتصم.. حيث أوصاه بابن أبي داؤد «لا يفارقنك وأشركه في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع ذلك منك»[١] . وباعتبار منزلته أنه رئيس لقضاء الدولة عمل أحمد بن أبي داؤد على إبقاء الوجه الاعتزالي للخلافة ، فكان المحرض على إبقاء المحنة وضرب من يعبرون عن أي ثقافة تنبذ الاعتزال وتنادي بالتمسك بالسنة، وبوجوده مع آخرين استمر الدفع بمحنه القول بخلق القرآن ، تلك الفتنة التي أشعلت وأثيرت لاعتبارات تتعلق بمخاوف الخلافة من قوى تتهيب منها وتخشى استحواذها على العامة وانتشارها في المجتمع بشكل يؤدي منازعة الخلافة سلطانها[٢] .

إن ثقة الخليفتين المعتصم والواثق بعقل أحمد بن أبي داؤد وإعجابهما به حولهما إلى مقلدين له فكراً وثقافة .. فالمعتصم غير البصير بعلم الكلام كما يذكر ذلك المتوكل[٣] .. كان يدخل عليه ابن أبي داؤد فيجيبه إلى كل ما يريد

---

(١) انظر : الطبري : تاريخه ، جـ ٨ ، ص٦٤٩ .

(٢) انظر : عبدالعزيز اللميلم : نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء ، جـ١ ، ص٤٤٠ ، جـ٢ ، ص٣٢١ .

(٣) انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ص٣٤٠ ، حيث يقول المتوكل : «وأما أبي المعتصم فهو رجل حرب لا بصر له بالكلام» .

ويقول عنه .. «هذا والله الذي يتزين بمثله ويبتهج بقربه ويعدل ألوفاً من جنسه.. ما وقعت عيني عليه إلا ساق لي أجر وأوجب لي شكر وأفادني فائدة تنفعني في ديني ودنياي[1] .

كما تبين بعض المصادر أن ابن أبي داؤد .. خص بالمنزلة نفسها عند الواثق .. فكان معجباً بفتاويه وآرائه ..[2] وفي عهد المتوكل يبرز الفتح بن خاقان إلى جانب الخليفة قائماً بأدوارٍ متعددة يمكن القول بأنَّ من بينها وظيفة المستشار الثقافي.. وبعض المصادر تذكر أنه كان أغلب الناس عليه وأقربهم منه[3].

أما منزلته العلمية فقد وصف بأنه في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب وله إسهام في ميدان التأليف والتصنيف[4] ، ولا جدال في أنَّ شخصاً يتمتع بمثل هذه القدرات مع تلك المنزلة والقرب من الخليفة لابد وأن يترك أثره على أفكار الخليفة ونظرته للأمور وقراراته السياسية .

وبما أن الأتراك أصبحوا قوة مؤثرة فعالة في الدولة العباسية منذ عام ٢٤٧هـ فمن الطبيعي والحال ما ذكرنا ، أن يكون لذلك التأثير والتسلط .. انعكاسه على الجانب الثقافي عند الخلفاء ومن تلك الانعكاسات : ازدياد الميل نحو الأدب الهابط .. والثقافة الماجنة عند بعض من نَصَّبَهم الأتراك حكاماً على الدولة العباسية . يتجلى ذلك فيما يرويه بعض المؤرخين من أشعار تحمل ذلك الطابع منسوبة للمستعين .. والمعتز[5] .

---

(١) الخطيب البغدادي ، ١٤٨/٤ .

(٢) انظر : البيهقي : المحاسن والمساويء ، ص١٦٩ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٤ ، ص٨٦ ، ياقوت : معجم الأدباء، جـ١٦، ص١٧٤ .

(٤) النديم ، الفهرست ، ص١٣٠ .

(٥) ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١٢٦ - ١٢٧ ، ١٣١ .

فلعل من دواعي الميل لهذا الأدب الشعور بقوة التحدي والرغبة في الهروب من مشكلة تفاقم نفوذ الأتراك وإخفاء لواعج الألم والحسرة التي يولدها تحكم هؤلاء الأتراك واستبدادهم بالنفوذ والسلطان .. ومن انعكاسات التسلط التركي على الخلفاء وما نتج عنه من قلق واضطراب أن أصبح الخلفاء في حال من القلق ؛ فكان لذلك أثره في شغلهم عن متابعة التحصيل العلمي والثقافي، وأدى في أوقات التأزم الشديد إلى اضطراب مَلَكَتِهم الذهنية . وهذا أحدهم وهو المعتز بالله ظل فترة لا يلتذ بنوم ولا يخلع سلاحه لا في ليل أو في نهار فرقاً من أحد قادة الأتراك في عهده[1] .

ومن زاوية أخرى نلمس أن هناك تأثيراً إيجابياً لقوة ضغط الأتراك على الخلافة في الجانب الثقافي الذي يخص الخلفاء عندما نرى أن من الخلفاء الذين تسنموا زمام الخلافة إبان تفاقم النفوذ التركي من حاول إعادة النظر بمسيرة الخلافة في ضوء معطيات العلم الشرعي .

فإن الخليفة المهتدي بالله أظهر تمثلاً لما يدعوا إليه العلم الشرعي قرآناً وسنة وحاول التشبه بعمر بن عبدالعزيز كما سيمر بنا ، والحقيقة أن الثقافة الجادة إذا اقترنت بها إدارة العمل والتطبيق كان ذلك عاملاً من عوامل مواجهة الضغوط والأزمات ، وكثيراً ما كانت بعض النصوص الجيدة دافعاً لبذل الجهد، ومن دلائل ذلك .. ما يُروى عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنَّه أراد الانهزام يوم صفين فذكر قول الشاعر عمرو بن الإطنابة الأنصاري :

أبت لـي عـفتي وأبى بلائـي   وإقدامي على البطـل المشيـح

(١) انظر المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص١٧٨ .

وإعطائي على المكروه مالي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

وعندها ضعفت عزيمة الهزيمة وإرادة الفرار[1] .

ب - الندماء وفئات أخرى :

الندماء هم أولئك الأشخاص المقربون من الخليفة ومهمتهم مسامرة الخليفة والحديث معه في مجالسه الخاصة ، يروي بعض المؤرخين أن التسمية آتية من كون المسامر ممن يندم على فراقة[2] .. وهذا المحيط المقرب من الخليفة ، المسامر له في مجالسه الخاصة ، يصح اعتباره بيئة ثقافية يشكلها الخليفة بهواه ومزاجه ، فهو الذي يختار النديم ناظراً لاعتبارات محددة تتوفر في الشخص الذي يخص بهذه المنزلة، وهذه البيئة الثقافية نَعُدها من قنوات التثقيف المهمة، لما لها من قرب مادي ومعنوي من عقول الخلفاء وطبائعهم ، وربما أعطتنا مؤشراً قوياً يحدد لنا نوعية الثقافة التي يضعها الخليفة في مركز الأهمية والاهتمام، فبما أن الخليفة يشكل هذه البيئة وفق ميوله ورغباته - ما لم تتدخل بعض مراكز القوى في تشكيلها - فإِنَّ قدرات الندماء الثقافية ومهاراتهم وظرفهم هي المرغوبة بدرجة أولى عند الخليفة .

إن الشروط التي تضعها كتب السياسة والأدب للنديم تعطينا فكرة عن نمط الثقافة التي يتلقاها الخليفة من نديمه، فمن تلك الشروط ، العلم بمنازل الطريق، أعلامه، ومياهه ، والعلم بأيام الناس، ومكارم أخلاقهم، والمعرفة بالنادر من

---

(١) انظر ابن الأثير : الكامل ، جـ٣ ، ص٣٠٣ .

(٢) مروج الذهب ، جـ ٤ ، ص١٦ .

الشعر والسائر من المثل[1] .. والملحوظ أن معظم الندماء شخصيات لها أبعاد معينة لا يغيب عنها البعد الفكاهي أو الهزلي[2] إلى جانب الإلمام بموضوعات ثقافية في فنون شتى.. فعلى سبيل المثال نجد أن لدى الخليفة المتوكل مجموعة من الندماء وقد عرف بكثرة ندمائه وتنوع ثقافتهم ، وكان بينهم طائفة من المنجمين والشعراء وأصحاب المواهب الأدبية والفنية من أهل الظرف والدعابة .

ومن أبرز ندماء الخلفاء «على بن يحيى بن المنجم[3]» الذي لم يكن نديماً للمتوكل وحده بل كان قبل ذلك إلى جانب الواثق كما نادم المنتصر والمستعين والمعتز بالله الذي طلبه للمنادمة رغم تأييده للمستعين وانحداره معه إلى بغداد[4] ، ويعزى ذلك إلى مواصفات شخصية ابن المنجم التي عرفت بخفة الظل والميل إلى الدعابة إلى جانب ثقافته العالية وإجادته مهمات المنادمة . وفيه يقول أحد معاصريه: «لأمر ما قدمت ، فيك ألف خصلة طبيب؛ ومضحك، وأديب ، وجليس ، وحذق طباخ، وتصرف منشد ، وفكر منجم وفطنة شاعر»[5].

ويستوقفنا في شخصية علي بن المنجم اهتمامه بالكتب حتى إنه أنشأ خزانة

(١) الجاحظ : التاج في أخلاق الملوك (منسوب) تحقيق أحمد زكي ، المطبعة الأميرية ، ص٧١ . انظر شروطاً للمنادمة يرويها الحصري عن بعض الظرفاء ، زهر الآداب وثمر الألباب ، جـ١ ، ص٤٤٨ .

(٢) انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، جـ١٥ ، ص١٦٢ ، وانظر ما يذكره الخطيب البغدادي عن أحمد بن حمدون (النديم) واحتياله لاضحاك الواثق ، تاريخ بغداد ، ١٨/١٤ .

(٣) ينحدر من أصول فارسية وكان جده أبو منصور على صلة بالفضل بن سهل يعمل برأيه في أحكام النجوم ثم أسلم على يد المأمون واختصه ونادم على بن يحيى المتوكل ونال عنده مكانة عالية ، انظر النديم ، الفهرست ، ص١٦٠ ، ياقوت ، معجم الأدباء ، جـ١٥ ، ص١٤٤ ، ويقول عنه الذهبي «.. كان ذافنون وعقليات وهذيان وتوسع في الأدبيات» سير أعلام النبلاء ، جـ١٣ ، ص٢٨٢ .

(٤) انظر : ياقوت : المصدر السابق ، جـ١٥ ، ص١٧٢ - ١٧٣ .

(٥) ياقوت : المصدر نفسه ، جـ١٥ ، ص١٦٢ - ١٦٣ .

كتب عظيمة تضم ذخائر الكتب[1] يقصدها الناس من كل بلد ؛ ولعل من أهداف ذلك رغبته في أنَّ يطلع على مختلف العلوم والفنون ، ليكون ذلك مما يضمن له البقاء بجانب الخليفة ، لأنه يجد عنده التليد والجديد من المعارف والعلوم .

ويأتي كذلك بين ندماء المتوكل بعض المؤرخين واللغويين .. مثل المؤرخ البلاذري[2] ويعقوب بن إسحاق السكيت[3] ، وأحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن حمدون ، صاحب المصنفات في اللغة والأخبار[4] .

ومما يعنيه ذلك أن حلقة الندماء لن يكون دورها مقصوراً على امتاع الخليفة وتسليته ، وإنما تثقيفه ، وتنمية الميول العلمية لديه ، وإضفاء بعض البصمات على نواحي تفكيره وبعض جوانب شخصيته .

ولقد زود الندماء الخلفاء بضروب من النوادر والأخبار التي يطلقونها بهدف إضحاك الخليفة وإدخال السرور عليه ، ومن أبرز الندماء من هذا الطراز أبو العنبس محمد بن إسحاق بن أبي العنبس من أهل الفكاهات وكان أديباً عارفاً بالنجوم أدخله المتوكل في جملة ندمائه وعاش إلي أيام المعتمد على الله[5] .

ويبدو أن جزءاً من دائرة الندماء عمل على تعميق الثقافة غير الجادة[6]

---

(١) ياقوت : المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص١٥٧ .
(٢) المصدر نفسه ، جـ٥، ص٩٠ ، وقد روى عنه بعض الأخبار ، انظر : فتوح البلدان ، ص١٥١ .
(٣) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ٢٠ ، ص٥٠ .
(٤) ياقوت : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٢٠٤ .
(٥) انظر النديم : الفهرست ، ص١٦٨ .
(٦) بل نلمس تدني الذوق .. الأدبي عند المتوكل عندما نراه لا يبالي بقصائد الرثاء التي قالها ابن أبي ذؤيب ومتمم بن نويره وابن مناذر ، وهي قصائد ألقاها العلامة المازني بين يديه وكان المتوكل يعقب عليها بالقول إنها ليست بشيئ !!؟ ولما أنشده أبياتاً للشاعر عبدالصمد بن غيلان في هجاء قاضي البصرة ، استحسنها واستطيبها .. وأمر للمازني بجائزة .
انظر الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ . وانظر مثالاً اخر ، المصدر نفسه ، ص١٠٣ - ١٠٤ .

التي من مقوماتها شعر المجون وورواية أخبار المجان ، فأصبحت تلك الثقافة مظهراً كالحاً لازم بعض الخلفاء الضعفاء كالمستعين والمعتز حيث تروى لهما اشعارٌ تعبر عن ذلك الاتجاه[1] ؛ كما زين بعض الندماء للخلفاء الاحتفاء ببعض الأيام الفارسية المعظمة مثل يوم «هرمز روز» ذلك اليوم الذي حسن علي بن المنجم للخليفة المتوكل الاحتفال به وتعظيمه[2] .

لقد أدى دخول المتوكل عالم الثقافة غير الجادة وتوسعه في الاختلاط بالندماء الهزليين إلى امتعاض بعض رموز الطبقة الإدارية الفارسية المحترفة ، أمثال إسحاق بن إبراهيم الذي قال - وقد رأى السماجة وهم الممثلون الهزليون يقتربون من المتوكل وقد لبس ثوباً موشىً : «أفٍ وتف وما تغني حراستنا للمملكة مع هذا التضييع»[3] .

ويظهر أن ذلك الامتعاض الذي أبداه إسحاق بن إبراهيم راجعٌ إلى إخلال ذلك المشهد بالهيبة المطلوبة للحاكم وهو ما تؤكده معطيات الثقافة السياسية ، وعلى أي حال فإن الندماء يختلفون باختلاف ثقافتهم وفنونهم ، ومهما كان تقويمنا لدورهم وأثرهم على ثقافة الخلفاء فإن بيئة الندماء بصفة عامة .. ظهرت والخلافة في حال من التراجع والتدهور ، كعامل سلبي يغذي الميل نحو اللهو والمجون وكانت تلك البيئة أبعد ما تكون عن مواصفات وشروط البيئة النموذجية التي ينبغي أن تحفز الحكم العباسي على بذل المزيد من الجهد من

(١) انظر ابن العمراني ، الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١٢٧ ، ١٣١ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ، جـ١٥، ص١٦١ وهرمزروز : هو اليوم الأول من كل شهر شمسي وهورب النوع عند الزراد شتيين التونجي : المعجم الذهبي ، ص٦٧٥ .

(٣) الشابشتي : الدِّيارات ، ص٤٠ .

أجل إصلاح المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية وإيقاف التدهور الاقتصادي والسياسي .

وما دام الحديث يتناول الجماعات المؤثرة على ثقافة الخلفاء فثمة جماعات غير ما ذكرنا ومن ذلك بعض الجماعات المحيطة بالخليفة التي أسهمت في بناء الجانب العلمي عند الخلفاء منها مثلاً :

١ - الأطباء مثل حنين بن إسحاق العبادي، وسلمويه بن بنان، وإبراهيم بن أيوب الأبرش طبيب المعتز[١] حيث وقف الخلفاء بوساطة هؤلاء الأطباء على تراث نافع في الطب والغذاء[٢] من نتاج ثقافات أجنبية هندية ويونانية ورومية، وهو تراث إنساني لم يكن بوسع برامج التأديب المبكرة تثقيف الخليفة فيه ؛ لأن القائمين عليها لم يكونوا مهيئن لذلك ، ولابد من الإشارة هنا إلى أن كون جل الأطباء من النصارى أو الصائبة فإنَّ ذلك لم يؤثر على معتقد الخلفاء واعتزازهم بدينهم .

٢ - المبعوثون من قبل الخليفة لمهمات سياسية ، أو استطلاعية ، أو تجارية ، ومن ذلك بعثة سَلاَّم الترجمان التي أمر الخليفة الواثق بإرسالها لتحسس خبر سد يأجوج وماجوج[٣] .. وقد ضمت تلك البعثة خمسين رجلاً ، ومثلها بعثة محمد بن شاكر إلى مدينة أُفْسُوس التاريخية التي استهدفت

---

(١) انظر عن هؤلاء : ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، جـ٢، ص١٠٦، ١١٦ ، ١٦١.

(٢) انظر على سبيل المثال إفادات حنين بن إسحاق للواثق عند المسعودي : مروج الذهب ٤/ ٨٠ - ٨١ ويذكر ابن أبي أصيبعة أنَّ حنين بن إسحاق خدم الخليفة المتوكل وأوضح معاني كتب أبقراط وجالينوس : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص١٤٦ .

(٣) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٥٩٧ .

التعرف على أخبار أصحاب الرقيم[1] .. وفي عهد المتوكل أرسل الخليفة رجلاً إلى الهند ومن ثمَّ وافى المتوكل بأخبارها ورسوم ملوكها[2] .

ولا يخفى أن الممارسة للسلطة من قبل الخلفاء أدت إلى أن يتعامل الخليفة مع كم هائل من المعلومات عن إدارته وعن رعيته فأصحابُ البريد بما يحملون من تقارير وإفادات ذات طابع جغرافي أو اجتماعي يسهمون في تنمية ثقافة الخلفاء في حقول لم يسبق أن تلقوا عنها أي معلومات عن طريق المؤدبين في المرحلة المبكرة من حياتهم ، وتأتي الخلفاء أخبار وروايات من مصادر شتى بحكم مكانته ورئاسته للجهاز الإداري .. يقول ابن خلدون : « .. السلطان سوقُ العالم تجلبُ إليه بضائع العلوم والصنائع وتلتمس فيه ضوال الحكم وتحدى إليه ركائب الروايات والأخبار[3] » .

ولا يخفى أن قوة الخليفة تجعل منه محط فئات شتى ، ومن بينها فئات لديها المعلومات الجيدة والفائدة العلمية والخبر الأدبي والرواية التاريخية ، لكن تلك الفئات التي منها بعض الشعراء والأدباء والأطباء وغيرهم سوف يتقلص تأثيرها في فترة ضعف الخلافة الشديد وربما ابتعدت عن بلاط الخلافة ؛ لأنه لم يعد الخليفة محور العملية السياسية والإدارية بل سيكون مجرد مراقب وضحية لقرارات الطغْمة التركية ، وهذا الخلل مما أدى إلى ابتعاد الفئات المثقفة أو جزء منها عن الخليفة إلى مراكز قوة أخرى في سامراء أو في بغداد ونيسابور فتصبح مشدودة إليها منتفعة بما عندها .

(١) انظر : ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص١٠٧ ، ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ، ص٦١ .
(٢) التنوخي ، نشوار المحاضرة ، جـ٣، ص١٠٤ ، ١١٣ .
(٣) المقدمة ، ص٣٠ .

جـ - أثر المذاهب والنزعات الفكرية :

شهدت الدولة العباسية صراعاً عنيفاً بين مجموعات ثقافية وفكرية متباينة ، الصراع اشتد منذ أوائل القرن الثالث الهجري، مما حتم على الخلفاء العباسيين أن يتزودوا بقدرٍ من الثقافة في مجال الآراء والمذاهب ، والإحاطة بالقضايا الفكرية المثارة ؛ من أجل حسم الصراعات وكبح تطلعات الفرق إلى النفوذ والسلطان ، وتوظيف بعض المسائل المثارة بما يؤدي إلى تعزيز نفوذ الخلافة ، ويبدو أن من أشد المجموعات الثقافية والفرق تأثيراً في المجتمع السياسي العباسي منذ القرن الثالث طبقة الكتاب الفرس الذين عملوا على إبراز ثقافة قومهم وحسنوا منهج الأكاسرة كمثل سهل بن هارون الفارسي[١] وعلان الشعوبي الوارق[٢] .

كما مارس المعتزلة تأثيرهم الثقافي على بعض الخلفاء وقد تبنى المأمون والمعتصم والواثق مقولاتهم .. وأمر المعتصم قاضيه ومستشاره أحمد بن أبي داؤد أن تعلم عقائد المعتزلة للصبيان في الكتاتيب[٣] ومعنى ذلك أن التثقيف في المراحل المبكرة الموجه لأبناء الخاصة وغيرهم ، ركز على غرس عقائد المعتزلة في نفوس الناشئة من بني العباس وغيرهم وقد استمر ذلك في عهد الواثق حيث أمر المعلمون بتعليم الصبيان في الكتاب رأي المعتزلة في القرآن[٤] .

---

(١) كان كاتباً شعوبياً يتعصب للعجم على العرب شديداً في ذلك .. ياقوت : معجم الأدباء ، جـ١١ ١١٦.

(٢) انظر : المصدر نفسه ، جـ١٢ ، ص١٩١ .

(٣) السيوطي : تايخ الخلفاء ، ص٢٦٨ .

(٤) حنبل بن إسحاق بن حنبل : ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل ، ص٨١ .

ومن خلال التأثير على الخلفاء تمكن المعتزلة من خوض حرب عوان ضد السنة، ظهر ذلك في المناظرات التي يشبهها بعض المفكرين بمحاكم التفتيش[1]؛ كما ظهر ذلك في تلك الاجراءات التعسفية والحملات الاضطهادية الموجهة نحو أئمة الحديث والسنة ، وقد رسم الأستاذ أحمد أمين صورة حالمة لمقاصد المعتزلة وأهدافهم حيث يرى أن المعتزلة كانوا يأملون في استمرار اتخاذ الاعتزال مذهباً رسمياً تحت حماية الدولة وفي تحول معظم المسلمين إلى معتزلة، فيتحررون في أفكارهم . ويذكر أن المعتزلة قصدوا أنْ تحرر عقول المؤرخين المسلمين فيتعرضوا للأحداث بعقل صريح ونقد حر .. ثم يقطع بأن التسليم والتقليد أصبح أساساً للاتجاهات الفكرية في عهد المتوكل[2] . وما ذكره أحمد أمين نجده عند الدكتورة نادية صقر حيث تكرر ما ورد عند الأستاذ أحمد أمين من وصف – لا دليل عليه – لآمال المعتزلة وتختم بالقول : « .. ولا بأس أن تكون هناك محنة أو بعض الضحايا فالغاية تبرر الوسيلة [3] .. » .

إن المجال لا يتسع لمناقشة هذه الآراء التي أغفلت الاعتبارات التي جعلت الخلافة العباسية تبرز مقولات أهل الاعتزال ، وما يَحكم عملية امتحان الأئمة من مقاصد وأهداف وهو ما أبرزته دراسات أخرى[4] .. كما أغفلت كثيراً من

(١) عادل العوا : المعتزلة والفكر الحر ، ص٢٦٤ ، ٢٨٢ .

(٢) ظهر الإسلام ، جـ٣ ، ص٢٠٣ .

(٣) انظر : نادية حسنى صقر : مطلع العصر العباسي الثاني – الاتجاهات السياسية والحضارية في خلافة المتوكل على الله . ٢٣٢ – ٢٤٧هـ . ص٢١٢ – ٢١٣ .

(٤) د. اللميلم : نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية ، ص٤٣٩ – ٤٤٠ ، جـ٢ ، ص٣٢١ .
ومن الواضح أن المعتزلة لم يكن لهم أي مشروع عملي يستهدف نشر الثقافة والفكر ، وسط الناس بل أن ذلك مما لا يعنيهم ولقد وصف أحد كبارهم العامة في بغداد بأنهم جهلة كالأنعام وذكر للخليفة ما يدل على جهلهم دون أن يدعو الخليفة إلى رفع ذلك الجهل ونشر العلم بينهم .. انظر حديث ثمامة بن الأشرس للمأمون : ابن طيفور : تاريخ بغداد ، ١٣٦٨هـ ، القاهرة ، ص٥٤ .

المؤشرات الدالة على وجود عدة أتجاهات فكرية وثقافية بين عناصر المحيط المقرب للخليفة المتوكل وهي اتجاهات متضادة يشعر وجودها بالقرب من الخليفة إلى التنوع والانفتاح في شخصيته ، ومن ثم فهو ليس متعصباً ضد اتجاه معين أو صنف من أصناف العلوم وهو ما انتهت إليه الباحثة الدكتورة ملكة أبيض حيث تذكر أن حاشيته ضمت ممثلين لجميع الاتجاهات[1] ، فتكون الحاشية المحيطة بهذا الخليفة دال على عدم انحيازه وتعصبه تأثراً باتجاه معين ، وعكس ما تحاول بعض الدراسات الإيحاء به لم يكن للمحدثين أو الفقهاء دورٌ مساندٌ أو سلطة رقابية في عهد المتوكل ، وكل ما في الأمر ، أن المتوكل رأى أن تلك الطبقة قد أصبحت جاهزة للاندماج في الدولة بعد أن مرت بها سنوات من التعرض ، والمعروف أنّ الإمام أحمد تُعرِّض له في خلافة المتوكل[2] ، وقد أبى أن يُحدِّث «المعتز بن المتوكل»[3] كما رد الصلة التي جاءته من الخلافة وعنها يقول : «لو أعلم أن هذا المال يؤخذ من وجهه ولا يكون فيه حيف لم أبالي»[4] .

وإذا كان الصراع الفكري قد أفرز العديد من المناظرات والمجادلات فإنَّ تلك المناظرات قد أثرت على توجه بعض الخلفاء ، وعلى سبيل المثال يذكر المهتدي بالله بن الواثق أنَّه كان يقول بخلق القرآن برهة من الدهر ولما سمع

(١) التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة . خلال القرون الثلاثة الأولى : بيروت ١٩٨٠م، ص١٢٥ ، وانظر ص٢١٨ ، وقد ناقش الدارس عبدالله الناجم بعض الآراء حول شخصية المتوكل ، انظر «الخلافة العباسية في عهد المتوكل على الله» رسالة ماجستير غير منشورة بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، انظر ص١٢٣ ، ١٧٩ .

(٢) انظر : حنبل بن إسحاق بن حنبل : محنة الإمام أحمد ، ص٨٥ .

(٣) انظر المصدر نفسه ، ص١٠٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص١٠٦ .

مناظرة بين شيخ من أهل الحديث وأحمد بن أبي داؤد في مسألة القول بخلق القرآن ظهرت فيها قوة حجة ذلك الشيخ ، حيث أفحم ابن أبي داؤد وغلبه .. حدابه ذلك إلى التفكير في هذه المسألة ثم الرجوع عن مقالة المعتزلة المتضمنة دعوى خلق القرآن(١) .

ولعل من نتائج الصراعات الفكرية والاجتماعية في المجتمع أن وجد تباين أحياناً بين الآباء الخلفاء وبعض أبنائهم أو إخوانهم .. في السلوك والاتجاه . ومن أبرز أمثلته .. ما كان بين المتوكل وابنه المنتصر من اختلاف حول العلويين فعندما يقول المنتصر لوالده المتوكل عن الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « .. إنه ابن عمك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك(٢) » يدل ذلك على أن الابن لايرتضي رأي أبيه في علي رضي الله عنه ومعلوم أن بعض المصادر اعتبرت المتوكل ناصبياً مُعادياً علياً رضي الله عنه(٣) . وهناك من الأمثلة ما يدل على اختلافات ذوقية وسلوكية ، كما بين الواثق أثناء خلافته وأخيه المتوكل ، فقد كان الوزير الزيات ينهي المتوكل - ولابد أن يكون ذلك عن رأي الواثق - عن بعض السلوكيات(٤) .

إن هذه المؤثرات سواء كانت تلك المجموعات اللصيقة بالخليفة أي خليفة من خلفاء هذه الفترة محل الدراسة أو تلك المذاهب التي تغلغل رموزها وممثلوها إلى دار الخليفة لها أثرها السلبي أو الإيجابي على فكر وثقافة الخلفاء فإنَ

(١) انظر : المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص١٩١ - ١٩٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ص٣٢١ ، انظر رأي الذهبي في إسناده هذه الرواية ، سير أعلام النبلاء ، جـ١٠ ، ص٣٠٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٧ ، ص٥٥ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٢ ، ص١٨ ، ٣٥ .

(٤) انظر ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١١٥ .

جُزءاً منها أسهم في تنمية ثقافة الخليفة وميوله العلمية ، كما يكسب بعضها نفس الخليفة آلية التفكير السليم والنظرة الواقعية للأمور ومن جانب آخر رأينا كيف أسهمت بعض المؤثرات في تدني الذوق الفكري عند بعض الخلفاء .

الخلفاء والحرص على اكتساب الثقافة :

إن الاستمرار في تحصيل المعرفة من المسائل التي تخضع لوعي الإنسان بأهميتها ، فكلما كان الإنسان مدركاً لأهمية العلم والمعرفة كان ذلك مدعاة للاستمرار في الطلب والتحصيل ، ولا يخفى أن التثقيف والتعلم عملية مستمرة وأن الثقافة هي موضوعات ومهارات تنمو وتزداد من خلال القراءة واللقاء بأهل العلم والمعرفة ، وغير ذلك من الصور التي يتم عن طريقها اكتساب الثقافة والإضافة إليها ، وبحكم أن هذه الموضوعات والمهارات مما يُقدم الخليفة لرعيته ، فليس غريباً أن يبدي خلفاء مرحلتنا قدراً من الحرص على تنمية الجانب الثقافي لديهم ، وإن كان ذلك القدر يتفاوت من خليفة لآخر.. صحيح أنَّ بنية الخليفة الذهنية ستكون منصرفة إلى شؤون أخرى حيث سيجد العديد من المعوقات والعقبات التي تتطلب قدراً من التفكير وانصراف الذهن ، برغم ذلك إلا أننا نلمس وجود بعض المواقف الدالة على رغبة بعض الخلفاء تنمية ثقافتهم .. والإضافة إلى معارفهم .

فكثيراً ما تردُ أخبار روايات تشير إلى عناية الخلفاء بتسجيل الفوائد والمأثورات فعلى سبيل المثال يروي نصر بن علي الجهضمي أنَّهُ دخل على المتوكل وهو يمدح الرفق ، قال : فقلت : يا أمير المؤمنين أنشدني الأصمعي في الرفق بيتين . فقال : ما هما يا نصر ؟ فقلت :

لم أر مثل الرفق في لينـه   قد أخرج العذراء مـن خدرهـا
من يستعن بالرفـق فـي   أمره يستخرج الحيه من جحرها

فقال : يا غلام . الدواة والقرطاس ، فكتبهما بيده[1] .

ويروي أبو نعيم الأصبهاني أن المتوكل استفسر من الإمام أحمد عن رأيه في القرآن للمعرفة والتبصرة فكتب إليه الإمام كتاباً تضمن ذلك المراد[2] . وكذلك كتب المعتز بالله ، عن علي بن حرب الحديث بخطه ودقق الكتاب[3] . ومثل ذلك فعل المهتدي بالله حيث كتب بعض الأخبار التي رواها له محمد بن علي الربعي[4] .

ومما يدل على الرغبة في تنمية الجانب الثقافي عند بعض الخلفاء أن المتابع لسير أكثرهم يلحظ قوة علاقتهم مع الكتاب قراءة وتصفحاً وتشجيعاً ودعماً للمؤلفين.. وما ساعد على ذلك أنه كان بين أيديهم أعظم خزائن الكتب في تاريخ الإسلام، خزانة بيت الحكمة التي حوت من الأسفار العتيقة كل جليل ونفيس[5].

لقد كانت الكتب تقرأ على المتوكل فيستمع إلى ما فيها[6] . وكان المهتدي بالله يستعرض دفاتر خزائن الكتب ويتصفحها[7] .

---

(١) انظر : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جـ٣ ، ص٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) انظر حلية الأولياء ، جـ٩ ، ص٢١٦ وما بعدها .

(٣) انظر : السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ، ص١٦٨ - ١٦٩ .

(٤) انظر : المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص١٩٣ .

(٥) كوركيس عواد ، خزائن الكتب القديمة في العراق ، ص١٠٥ ، انظر : خضر أحمد عطا الله : بيت الحكمة في عصر العباسيين ، ط١ ، دار الفكر العربي ، القاهرة . ص٢١٢ ، ٢١٦ .

(٦) انظر : الطبري : تاريخه ، جـ٩ ، ص٢٢٩ .

(٧) انظر : المسعودي : مروج الذهب جـ٤ ، ص١٩٣ .

وتدل الكتب التي ألفت لبعض الخلفاء كالمتوكل[1] والمهتدي بالله[2] على الأهمية التي يوليها أولئك للكتاب باعتباره مصدراً لإثراء الثقافة وتنميتها وباعتباره أيضاً وسيلة من وسائل التثقيف الذاتي تلك الوسيلة التي ما فتيئ الخلفاء السابقون على التأكيد على أهميتها وأثرها في تحصيل المعرفة ومن ذلك ما يقوله المأمون في بيان فوائد الكتاب .. «هو محدث لا يملُ وصاحب لا يخل وجليس لا يتحفظ ومترجم عن العقول الماضية والحكم الخالية .. والأمم السالفة .. »[3] .

مكونات الثقافة عند الخلفاء في هذه المرحلة :

١ - مقدمة وقراءة أولية :

تمدنا المصادر بشذور متفرقة عن الجوانب الثقافية عند الخلفاء في هذه المرحلة من تاريخ الدولة العباسية ، هذه الشذور تأتي ضمن ذكر مناقب وخصال أولئك الخلفاء في سياق لا يخلو أحياناً من المبالغة .

وهي تقديم لما نريد دراسته نشير إلى أن هناك اهتمامات ثقافية تبرز عند هذا الخليفة وتقل عند ذاك ، فلو نظرنا إلى خلفاء هذا الفصل من تاريخ الدولة العباسية (٢١٨ - ٢٥٦هـ) وتحديداً إلى الخلفاء الثلاثة الأوائل أي المعتصم وابنيه الواثق والمتوكل لرأينا المعتصم مهتماً بما عند الأمم المجاورة من تراث وعوائد كما سوف نبين، بينما اهتم الواثق بالأدب والفلسفة وأظهر المتوكل ميلاً

---

(١) انظر مثلاً : النديم : الفهرست ، ص١٦٢ ، ٣٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٥٩ .

(٣) الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، تحقيق يوسف العش ، ص٢٤ .

إلى السنة والحديث والأدب بمختلف فنونه .. كذلك كان هناك اختلاف بين في مدى عمق ثقافة كل خليفة .

لقد كان الجانب العلمي والثقافي عند المعتصم ضئيلاً قياساً إلى أخيه المأمون .. فلقد أشارت بعض المصادر إلى أنه كان عرياً من العلم[١] وأنه كان أمياً لا يحسن الخط والكتابة[٢] . وتسهم الرواية التي يظهر فيها المعتصم وهو يسأل وزيره عن معنى (الكلأ) ، فلم يدر الجواب حيث شارك المعتصم وزيره في جهل ذلك المعنى وقول المعتصم بناءً على هذه الرواية : إنا لله وإنا إليه راجعون خليفة أُمي وكاتب أمي[٣] ، تسهم تلك الرواية في تأييد ما ذهبت إليه بعض المصادر من أن المعتصم كان أمياً ، لكن يبدو أن تلك الرواية من قبيل الروايات الأدبية ذات البعد الفكاهي والتي تضعها مخيلة الرواة لامتاع القارئ وتسليته، وقد أشار بعض العلماء إلى ضعفها[٤] .

لقد نمى المعتصم ثقافته لذلك فلا غرابة أنْ يقول عنه أحد معاصريه : «والله ما رأيت مثل المعتصم ، لقد رأيته يملي كتاباً ويقرأ كتاباً ويعقد بيده ، وإنه لينشد شعراً يتمثل به[٥]» وهذا القول يفهم منه أن ضآلة علوم المعتصم لم تصل إلى حد الأمية ، وفي الواقع لا نعدم في شخصية المعتصم اهتمامات ثقافية بمعناها الواسع فقد تجاوز المعتصم المجردات والتعقيدات الفلسفية والكلامية إلى الاهتمام برسوم الأمم المجاورة وتقاليدها وما عندها من تراث

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٦٧ ، انظر ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٩١/١٠ .
(٢) ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١٠٦ .
(٣) انظر : الحصري : زهر الآداب وثمر الألباب ، جـ٢ ، ص٧٨٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٩٥/٥ .
(٤) هو أبو القاسم الزجاج ، انظر الحصري : المصدر نفسه ، الجزء نفسه، ص٧٨٥.
(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٠ ، ص٣٠٦ .

ورسوم، يستشف ذلك مما ذكرته المصادر عن اقتباس المعتصم كثيراً من التقاليد المتبعة عند الأمم المجاورة فيذكرُ عنه أنه تشبه بملوك الأعاجم ومشى مشيهم ولبس القلانس والشاشيات التي نسبت إليه[١] وكان أول خليفة تتوج[٢] .. ومثل هذه التقاليد المقتبسة نرى أنها تنبعث من موقف ثقافي عند المعتصم بدأ بالتطلع إلى معرفة ما عند تلك الأمم المجاورة من تراث ورسوم وانتهى بتقليدهاوالأخذ ببعض أساليبها وبخاصة في مجال الألبسة والأزياء[٣] ، وعلى كل فإن هذه الاهتمامات والميول لا تُغيِّبُ ألواناً أخرى من الثقافة والمعرفة مال إليها المعتصم وعرف بتذوقها كما سوف يمر بنا ، ويعد الواثق في نظر بعض المؤرخين وافر الأدب مليح الشعر مبرزاً في مجموعة من الفنون[٤] ، أثر عليه المأمون الذي رباه وعَلَّمَهُ الأدب وأقرأه القرآن الكريم[٥] ، وورث من المأمون نزعته العلمية وسلك مسلكه في مذهب الاعتزال إلى الإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة[٦] ، ونفهم أن ذلك الميل يدل على رغبة شديدة في اكتساب جوانب من الثقافة المعروفة في ذلك العصر وبخاصة العناصر الثقافية الجديدة التي اكتسبتها الأمة في ذلك الزمن .

أما المتوكل .. فقد خالف من سبقه في اتجاهاته الثقافية حيث أظهر ميلاً

(١) انظر : المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص٣١٩ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٦٨ .

(٢) انظر العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١٠٤ .

(٣) يذكر بعض المؤرخين ، أنه تزيا بزي الأتراك ورفض زي العرب : الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٥ ، ص١٤١ .

(٤) انظر : السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٧٣ .

(٥) ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١١١ .

(٦) المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص٧٣ .

للحديث والسنة[1] ، ورفع المحنة عن الإمام أحمد ، ورفض الاتجاهات الاعتزالية التي سادت قبله ، ولم يعد المأمون في نظره نموذج الحاكم المعلم الذي يُتأسى به فعنه يقول : «خلط وسلط الناس على نفسه»[2] .

والخلفاء الذين جاؤوا بعد المتوكل أولئك الذين تفاقم في عهدهم النفوذ التركي غلب على ثقافة بعضهم طابع محدد فالطابع الأدبي يغلب على ثقافة المستعين والمعتز .. أما المهتدي بالله فهو الخليفة من طراز مختلف قياساً إلى زمنه برزت ثقافته الدينية بشكل واضح «فكان يخطبُ الناس ويؤم بهم وأراد حملهم على الطريق الواضحة»[3] وسيأتي مزيد بيان لذلك .

تلك صورة عن أبرز اهتمامات الخلفاء الثقافية وقراءة أولية حاولنا من خلالها إعطاء ملامح سريعة عن الاتجاهات الثقافية عند خلفاء هذا الفصل من تاريخ الدولة العباسية .

ومن تلك المقدمة والقراءة الأولية إلى شيئ من البسط والبيان لأبرز مكونات الثقافة عند الخلفاء .

٢ - الثقافة الشرعية عند الخلفاء :

يُعدُ الإلمامُ بقدر من العلوم الشرعية مما يطلب في من يتولى منصب الخلافة ؛ لكي يمكنه العلم بأحكام الإسلام من توجيه أمور دولة الخلافة في ضوء الشريعة الإسلامية ، وإضافة إلى ذلك فإنَّ الثقافة الشرعية هي ثقافة المجتمع الذي يحكمه العباسيون وعليها المعول في بناء فلسفة الحكم التي تسند

(١) انظر : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٣٤٤/٢ . حيث يذكر أن المتوكل نهى عن الكلام في القرآن أي القول بأنه مخلوق وأشخص المحدثين والفقهاء إلى سامراء .

(٢) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤٠/١٠ .

(٣) انظر المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص١٨٣ .

شرعيتهم وأحقيتهم بالخلافة ؛ وبناءً على ذلك فإن من تحصيل الحاصل أن تصبح دراسة الأحاديث النبوية والأحكام الشرعية من الأساسيات التي يتلقاها أولاد الخلفاء في وقت كانت فروع العلوم الشرعية تتجاوز مرحلة التكوين إلى مرحلة النضج والاكتمال .

لهذا لفت الخلفاء الأوائل نظر أبنائهم إلى أهمية الحديث النبوي ، يقول أبو جعفر المنصور لأحد أبنائه : «يا بني لا تجلس مجلساً إلا وعندك من أهل الحديث من يحدثك فإن الزهري قال : علم الحديث ذكر لا يحبه إلا ذكران الرجال ولا يكرهه إلا مؤنثهم وصدق أخوزُهْرة .. »[(١)] .

وحرص أبو جعفر على أنَّ تكون مصادر ثقافة ابنه المهدي على درجة من الثقة في وقت اشتدت حركة الوضع في الحديث النبوي ، كما ظهر الاعتراض على الأحاديث الصحيحة في باب العقيدة ، يَظهر هذا الحرص في طلب أبي جعفر المهدي ألا يقبل على مقاتل بن سليمان[(٢)] ويأخذ العلم عنه ؛ لأنه لم يكن على درجة من الثقة والقبول . يقول المنصور لابنه المهدي : «بلغني إقبالك على مقاتل وساءني ذلك وإنك إنما تعمل غداً بما تسمع اليوم فلا تقبل على مقاتل وأقبل على الحسن بن عمارة للفقه ، ومحمد بن إسحاق للمغازي[(٣)] .. ».

وقبل نهاية العصر العباسي الأول دخل علم الكلام المعتزلي وما يفيض به

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ص١٢٦ .

(٢) هو مقاتل بن سليمان الخراساني البلخي صاحب التفسير ، روى أنَّه عرض على المهدي أحاديث موضوعه في فضائل العباس فقال المهدي .. لا حاجة لي فيها ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ١٠، ٢٧٩ ، ٢٨٣ .

(٣) البغدادي : تاريخ بغداد ، جـ٧ ، ص١١٧ .

من جدل ومراء إلى ساحة الخلافة ليصبح أحد مكونات ثقافة المأمون والواثق الذي يعدُ «تربية المأمون[١]» وأدى ذلك إلى إقصاء حملة الحديث والسنة وامتحانهم .. يتضح تأثير علم الكلام المعتزلي على الواثق عندما يناقش أحمد بن نصر الخزاعي في القرآن ومسألة رؤية الله يوم القيامة .. حيث استلهم في محاجته تلك منهج المعتزلة الذين دأبوا على تفسير نصوص الكتاب والسنة بمنطق فلاسفة اليونان[٢] .

لم يستمر تبني الخلافة لمقولات المعتزلة وتَلقِيْها علوم الشريعة منهم ، حيث أعاد المتوكل على الله الأمور إلى نصابها فرفع المحنة ودعا مجموعة من المحدثين إلى سامراء ليرووا الأحاديث النبوية[٣] ، وغير خاف أن اتصال المتوكل بهؤلاء العلماء والمحدثين أكسبه الوقوف على ما لديهم من علم وفقه مضيفاً ذلك إلى مكونات ثقافته وعلومه ، تلك الثقافة التي لم تصل إلى حد التعمق والرسوخ ؛ كما أنها لم تكن الثقافة بين مكونات ثقافته ؛ لأن الثقافة الشرعية تعطي الخليفة الموازين والأحكام في قضايا دولته إلا أننا لم نر أثرها الواقعي في السياسات الداخلية للمتوكل بل نرى أعمالاً ومظاهر لم تكن في مصلحة الدولة ولا تقرها الشريعة مثل ظاهرة الاسراف والبذخ[٤] ، والمفاضلة بين

(١) ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١١١ .

(٢) انظر : مناقشة الواثق لأحمد بن نصر الخزاعي عند ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٠ ، ص٣٠٤ ، وكان مما قاله مخاطباً أحمد بن نصر : «ويحك أيرى كما يرى المحدود المتجسم ويحويه مكان ويحصره الناظر» قال ابن كثيرمعلقاً : وما قاله لا يجوز ولا يلزم ولم يرد به هذا الخبر الصحيح ، المصدر نفسه .

(٣) انظر : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جـ٢ ، ص٣٤٤ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٧٧ .

(٤) انظر: الرشيد بن الزبير: الذخائر والتحف، ص١٢٠ - ١٢١، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١١، ص١٧.

الأبناء[1] ، وبدوافع مذهبية بحتة يُعد السيوطي المتوكل من اتباع المذهب الشافعي ويروى أنه كان يتحسر على أن فاته اللقاء بالإمام الشافعي ويقول معبراً عن ذلك : « .. كنت أحب أن أكون في أيامه فأراه وأشاهده وأتعلم منه فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول : أيها الناس إن محمد بن إدريس الشافعي قد صار إلى رحمة الله وخلف فيكم علماً حسناً فاتبعوه .. » ثم قال : «اللهم ارحم محمد بن إدريس رحمة واسعة وانفعني بذلك.. » قال السيوطي : «استفدنا من هذا أن المتوكل كان متمذهباً بمذهب الشافعي وهو أول من تمذهب له من الخلفاء[2] » .

إنَّ الشافعي رحمه الله إمام كبير ولن تضفى عليه تلك المقولة المنسوبة منقبة تنقصه كما لن يضفى عليه انتساب المتوكل إلى مذهبه ميزة يفتقدها ، ولا نعتقد أن الخليفة سوف يهتم بالمسائل المذهبية ودقائقها إلا إذا كانت تلك المسائل مما يفيد الخلافة في صراعها مع المعارضة سواء أكانت علوية أم خارجية أم كانت زعامة فقهية ذات انتشار اجتماعي .

إن المتوكل مثله مثل غيره من خلفاء بني العباس قبله يرون أنهم فوق المذاهب وأنهم هم أهل العلم والحكمة . يقول المؤسس الفعلي لدولتهم أبو جعفر المنصور : «إن الحكمة علينا أنزلت ومن عندنا فصلت فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارده وتصدروه مصادره[3] » .

(١) انظر : الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٩ ، ص٢٢٢ - ٢٢٣ ، وراجع عبدالعزيز اللميلم : نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية ، جـ١ ، ص٤٩٠ .

(٢) تاريخ الخلفاء ، ص٢٨٢ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٨ ، ص٩٠ . راجع ، عبدالرزاق الأنباري : النظام القضائي في العصر العباسي (١٤٥ - ٦٥٦هـ) حيث يعقب على بروكلمان وفاروق عمر وقد رأيا أن الدولة العباسية اتخذت المذهب الحنفي مذهباً رسمياً لها ، ص١٢٨ .

ويا ترى إذا كان المتوكل متمذهباً مقلداً للشافعي رحمه الله ، فكيف يطلب من الزبير بن بكار أنْ يُعلِّم ابنه الأثير لديه «المعتز» فقه المدنيين ؟ في إشارة إلى فقه الإمام مالك إذ يذكر البيهقي في المحاسن والمساوئ أن الخليفة المتوكل أوصاه بأن يعلم ابنه المعتز من فقه أهل المدينة[1] ومعلومٌ أن الزبير بن بكار هو من أصحاب الإمام مالك[2] .. وكان قصد المتوكل أن يلم ابنه بجوانب من الفقه المالكي المنتشر في المدينة يومئذ .

وبعد المتوكل وفي أثناء ظروف طغيان الأتراك نرى الخليفة المعتز يوجه قدراً من اهتماماته إلى طلب العلوم الشرعية وبخاصة الحديث النبوي فقد كتب الحديث عن علي بن حرب الطائي ، بخط دقيق[3] ، وهي بادرة أوردتها بعض المصادر تنم عن هذا الخليفة ، أنه اعتنى بهذا العلم .

ولئن كانت علوم الحديث والفقه تظهر أحياناً أنهما من مقومات ثقافة بعض الخلفاء فإن الخليفة تنبئ سيرته عن رسوخه في العلوم الشرعية عامة بمستوى يفوق خلفاء مرحلة ما بعد المأمون هو الخليفة المهتدي بالله (٢٥٥ - ٢٥٦هـ) .

ولعل مما عمق ثقافته الشرعية ، صحبته للعالم الفقيه - أحمد بن عمرو الشيباني الخصاف - الذي صنف للمهتدي كتاب الخراج[4] .

وإلى جانب ذلك . فقد لمس هذا الخليفة حاجة الدولة إلى الإصلاح ورأى

---

(١) المصدر السابق ، ص٣٨٠ .

(٢) انظر : القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، جـ١ ، ص٥١٤ .

(٣) السمعاني : أدب الإملاء والاستملاء ، ص١٦٨ - ١٦٩ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ٧ ، ص٢٩٥ .

(٤) انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٣ ، ص١٢٣ ، يذكر الذهبي أن الخصاف صنف كتاب «الحيل» و«الشروط الكبير» و«ذرع الكعبة والمسجد والقبر» ومات في بغداد سنة ٢٦١هـ .

أنَّ إبراز دور الخليفة والتأكيد على مكانته الدينية ووظيفته العلمية ، هو ما يَدْعم الخلافة في صراعها مع القوى التي أفقدتها هيبتها ومكانتها ونعني بها تحديداً مجموعات الضغط التركية ، ولن يتأتي ذلك إلا إذا كان الخليفة نفسه يمتلك مقومات الرجل المصلح والمعلم الذي يقتدى به .

تنبئ سيرة المهتدي بالله أنه حاول جهده نقل المعرفة التي اكتسبها إلى حيز التنفيذ وقد وضع نصب عينه نموذجاً سياسياً رفيعاً هو عمر بن عبدالعزيز.. ومعلوم أن عهده شهد توافقاً بين ثقافته الدينية ومنهجه في الحكم، وتكاملاً بين تلك الثقافة التي تعمق فيها وشخصيته وأسلوبه في الإدارة .

يذكر ابن العمراني أنه كان يقول : «لو لم يكن الزهد في الدنيا والإيثار لما عند الله من طبعي لتكلفته وتصنعته فإن منصبي يقتضيه فإني خليفة الله في أرضه والقائم مقام رسوله النائب عنه في أمته وأني لا ستحي أن يكون لبني مروان ، عمر بن عبدالعزيز وليس لبني العباس مثله وهم آل رسول الله ﷺ[1] ..» .

وهكذا فإن ثقافة المهتدي بالله الدينية وفقهه الشرعي حدت به إلى الشروع في تنفيذ برنامج عملي جاد ، استهدف إصلاح الأوضاع المتدهورة في الدولة العباسية[2] ..وتحرير الخلافة من أي ضغط يعطلُ فاعليتها .

إن الخلفاء قبله وإن حازوا على قدر من الثقافة الشرعية وألموا ببعض العلوم إلا أن معطيات تلك الثقافة . لم يظهر لها أثر في طريقة تصرف الخلافة إزاء بعض المشكلات التي واجهت الخلافة العباسية مثل مشكلات الأعراب شرق المدينة وفي

---

(١) ص ١٣٣ .

(٢) انظر : فاروق عمر : الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ، ص٧٥ .

بعض نواحي اليمامة أيام الواثق[١] لم تبذل الخلافة أي جهد في سبيل نشر العلم الشرعي بين هؤلاء الأعراب، انطلاقاً من واجباتها ؛ وليعبر الخليفة بهذا الإجراء المفترض عن عمق ما حازه من علم، ولم تكن هناك حملات إرشادية أو تعليمية تستهدف إصلاح شأن تلك القبائل البدوية، لقد أرسل القائد التركي «بغا الكبير» ليحارب بني نمير وغيرهم من القبائل سنة ٢٣٢هـ . فقتل أعداداً منهم وأسر أعداداً أخرى كبيرة وضرب بعضهم بالسياط حتى إن الواحد منهم ليضرب ما بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ سوط وكان مجموع من حُمل إلى سامراء (٢٢٠٠) رجل من نمير وطيء وثعلبة وفزارة وكلاب[٢] ، وما أشد حاجة عرب بني نمير حينئذ والقبائل المجاورة لهم إلى أنْ ينشرُ بينهم العلمُ الشرعي وأن يرفق بهم حتى يُزال ركام الجهل الذي تكدس في تلك المناطق بسبب الإهمال المتواصل لأجزاء من الصحراء العربية نعني على وجه التحديد الاهمال التعليمي والاهمال المادي[٣] .

وهذا ما انتبهت إليه في العصر الحديث تجربة الملك عبدالعزيز رحمه الله الرائدة حيث اختطت الحكومة السعودية مشروع توطين البادية وتم تثقيفهم ثقافة دينية مناسبة[٤] فكان لذلك أثره في تعميق الارتباط بين تلك القاعدة

(١) انظر : الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ٩ ، ص١٢٦ ، ١٤٦ - ١٤٧ ، ابن الأثير الكامل في التاريخ جـ٧ ، ص١٢ ، ٢٧ .

(٢) انظر الطبري : الطبري ، المصدر نفسه، ص١٤٩ - ١٥٠ . ابن الأثير : المصدر نفسه، ص٢٨ - ٢٩، راجع عبدالعزيز اللميلم : نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية ، جـ١ ، ص٣٨٧ - ٣٩٠ .

(٣) يرى القاضي عبدالجبار الهمذاني (ت ٤١٥هـ) إن ترك إرسال الفقهاء إلى البوادي والآفاق مما أدى ابتلاء جزيرة العرب ببعض الحركات المتطرفة كالقرامطة ، انظر تثبيت دلائل النبوة ، جـ٢ ، ص٥٢٢.

(٤) انظر : عبدالفتاح أبو علية : الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز ، ص٢٤٠ ، ويذكر الزركلي أن مما واجهه به الملك عبدالعزيز البادية بالإضافة إلى القوة لزجر من تمرد ، تعليم أصول الدين عن طريق الأئمة حيث يعلمون البدو الدين وأصوله ويصقلون طباعهم ويوجهونهم إلى الخير ، خير الدين الزركلي ، الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز ، ص٦٩ - ٧٠ .

الاجتماعية وقيادتها ، وعود على ما كنا نتناوله حول عدم ظهور أثر الثقافة الشرعية عند بعض الخلفاء في حل بعض المشكلات التي واجهت الخلافة .. فنقول : إنه لا يخفى أنَّ إعطاء الثقافة الشرعية البعد التطبيقي والتنفيذي مما يسهم في حل المشكلات التي تواجه الخلافة ومنها مشكلات مالية وإدارية واجتماعية تراكمت في هذه المرحلة فأصبحت وقوداً لبعض الحركات المتطرفة .

على أن إعطاء الثقافة الشرعية هذا البعد العملي التنفيذي متوقف فيما يبدو على عدة أمور منها: مدى عمق ثقافة الخليفة الدينية ونباهته وفقهه، ومدى تحول تطبيق الأحكام الشرعية إلى هاجس يساور ذهن الخليفة ومبدأ تسخر الإمكانيات من أجله ، وكذلك مدى وجود بيئة علمية صالحة محيطة بالخلافة توجه عقل الخلافة وتسدد عمله .

٣ - الثقافة اللغوية والأدبية عند الخلفاء :

عنى الخلفاء العباسيون بتزويد أبنائهم بثقافة أدبية من أبرز موضوعاتها ومقوماته المسائل النحوية واللغوية والأخبار الأدبية .

ومعلوم أن هذا التوجه مما أكد عليه أولئك الخلفاء الذين أثروا على تربية بعض خلفاء المرحلة محل الدراسة ، وأثروا بشكل أو بآخر على نمط التربية ومناهج الثقافة التي تلقاها خلفاء هذه المرحلة من حيث اعتبرت آراؤهم مصدراً للقيم التربوية عند العباسيين المتأخرين ، فهارون الرشيد يطلب من معلم ولده تعليمه الأشعار والأخبار(١) ، كما يطلب من الكسائي أن يروي عفيف الشعر وآداب الفرس والهند(٢) .

(١) انظر البيهقي : المحاسن والمساوىء ، ص٥٧٥ .

(٢) انظر ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ، جـ٤ ، ص١٣٧ .

ويقول المأمون في معرض الحث على طلب العلوم الأدبية والأخذ بجوانب منها : «لأن تموت طالباً للأدب خيرٌ من أن تعيش قانعاً بالجهل»[1] .

ومما يعكس تلك العناية مشاركة نخبة من لغويي العصر وأدبائه في تنفيذ برامج التأديب الأولية الموجهة نحو أبناء الخلفاء الذين اعتلى بعضهم سدة الخلافة وأمسك بزمامها، فمن أولئك اللغويين الفراء[2]، ويعقوب بن إسحاق بن السِّكِّيت[3]. ومحمد بن عمران الضبي[4] وإبراهيم بن سعدان النجدي[5] ، وغيرهم .

ولعل من أهداف تزويد الخلفاء في صباهم بموضوعات أدبية ولغوية تأهيلهم في المستقبل لمواجهة الجموع وملاقاة المتحدثين ، ولسان المرء كما يقول الشاعر «وافد عقله وعنوانه»[6] .

والثقافة الأدبية بمختلف فروعها وأنساقها ترفد الخليفة في أحاديثه ومحاوراته بمادة من الأمثال والحكايات والأشعار، تجعله يظهر أمام الناس مالكاً لناحية البيان أو كما يقول المأمون وهو يعدد مواصفات رجل الدولة :

---

(١) البيهقي : المحاسن والمساويء ، ص٦ .

(٢) يحيى بن زياد الأسلمي مؤدب أولاد المأمون حيث كان يلقنهم النحو .
الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٠ ، ص١٥٠ .

(٣) انظر ياقوت : معجم الأدباء ، جـ٢٠ ، ص٥٠ ، الذهبي سير أعلام النبلاء ، جـ١٢ ، ص١٦ ، ١٨ .

(٤) انظر : الطبري : تاريخه ، جـ٩ ، ص٣٧١ ، ياقوت : المصدر السابق ، جـ١٨، ص٢٧٢ .

(٥) ياقوت : المصدر نفسه ، جـ١ ، ص١٥٢ .

(٦) وردت هذه العبارات في أبيات للشاعر علي بن محمد بن بسام العبرتائي (ت ٣٠٢هـ) يمدح فيها النحو وكان مما قاله :

رأيت لسانَ المـرء وافـد عقلـه ... وعُنوانـه فانظـر بمـاذا تعنـون ؟
ولا خير في للفظ الكَرِية استماعه ... ولا في قبيح اللحن والقصد أزين

انظر : ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جـ١٤ ، ص١٥١ .

«يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه»[1] ، كذلك ربما كان من الأهداف التي دفعت الخلفاء الآباء إلى التركيز على النحو واللغة مواجهة مد العجمة والتأثيرات اللغوية الأجنبية، يعكس ذلك ما يروي عن المأمون حيث عاتب بعض ولده وقد رآه يلحنُ في كلامه فقال له : ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم به أوده ويزين مشهده ويتملك مجلس سلطانه بظاهر بيانه ويفل حجج خصمه بسكنات حكمته أو يسر أحدكم أنْ يكون لسانه كلسان عبده وأمته ولا يزال أسير كلمته»[2] .

ويتباين مستوى إلمام الخلفاء بالموضوعات الأدبية واللغوية . ونرى في المعتصم نموذجاً للخليفة الذي لم يأخذ بقسط وافر من علوم الأدب واللغة[3]. وذلك يرجع إلى انصرافه المبكر عن الدراسة «في الكتاب» كما مر بنا ، ومعلوم أن الدراسة في ذلك الموضع تعد مرحلة تأسيس يركز فيها على الدراسات اللغوية والنحوية ، إضافة إلى ذلك .. فالمعتصم فيما يبدو شخصية مياله إلى الاهتمام بالأمور العملية والثقافة العسكرية تتبرم من التعريفات والتشقيقات اللغوية والمذهبية[4] ، وقد مر بنا الإشارة إلى بعض اهتماماته ، لكننا لا نعدم

---

(١) الماردي : الأحكام السلطانية ، ص٢٢ .

(٢) البيهقي : المحاسن والمساويء ، ص٤٢٣ .

(٣) انظر : مايروى عنه حيث يقول لأحد - أصحابه قد علمت أني دون إخوتي في الأدب ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٧٠ . الحصري : زهر الآداب وثمرة الألباب ، جـ٢ ، ص٧٨٥ ، ابن طباطبا : الفخري ، ص٢٣٣ .

(٤) يفهم ذلك من شعوره بعدم جدوى الفتنة المذهبية التي أثارها المعتزلة فهو يقول للإمام أحمد : «.. لولا أنك كنت في أيدي من كان قبلي ما عرضت لك ولا امتحنت أحداً بعدك ولو أنه وراء حائطي هذا» انظر : حنبل بن إسحاق : ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل ، ص٥٢ ، لكن ذلك الشعور الذي تمليه عليه فطرته اصطدم بنزعة التقليد والمحافظة على موروثات العهد السابق (عهد المأمون) ساعد على ذلك أن رموز المعتزلة كانوا يُغَذُّون هذه النزعة .

في شخصية المعتصم جوانب معبرة عن وجود ثقافة أدبية لديه لا تصل إلى مستوى التعمق والرسوخ لكنها تعطينا الانطباع بوجودها ضمن الفعاليات الكامنة في شخصيته ومن تلك الجوانب قرض الشعر حيث يروى له أبيات قليلة في الوصف[1] والحث على التجهز للحرب[2] .. وكذلك يؤثر عنه إنتاج القول البليغ الموجز يدل على ذلك أنه لم يرض بما كتبه كُتَّابه جواباً على كتاب ملك الروم وأمر الكاتب أن يكتب «أما بعد فقد قرأت كتابك وسمعت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع وسيعلم الكافر لمن عقبي الدار ..[3]» .

يعبر أيضاً عن وجود ثقافة أدبية لدى المعتصم تفاعله مع الشعر الجيد وتأثره به ومما يظهر ذلك أنه عفا عن تميم بن جميل السدوسي لما أنشده قصيدته التي مطلعها :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيثما أتلفت

ومما جاء فيها :

وما جزعي أن أموت وإنني ... لا أعلم أن الموت شيئ مؤقت

ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت

فإن عشت عاشو سالمين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت موتوا

فتبسم المعتصم وقال : قد وهبتك للصبية وغفرت لك الصبوة[4] .

(١) انظر المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤، ص٥٩ .

(٢) انظر : السيوطي . تاريخ الخلفاء ، ص٢٦٩ .

(٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، جـ٣ ، ص٣٤٤ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء جـ١٠ ، ص٢٩١ ، وقد بين المحقق أن قراءة «وسيعلم الكافر» هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وقرأ الباقون «وسيعلم الكفار» .

(٤) الحصري : زهر الآداب ٢/٧٨٤ - ٧٨٥ .

كذلك نراه بناءً على بعض الروايات يتأثر بقصيدة إبراهيم بن المهدي المتضمنة الحث على الجهاد والتي أولها «يا غارة الله ..»[1] .

ولا يخفى أن التفاعل مع جيد الشعر والتأثر به يعكس أحياناً ارتفاع الذوق الأدبي عند المتأثر والمتذوق ويدل على إلمام واطلاع على الموضوعات الأدبية ومعانيها وأغراضها .

وموجز القول : إن المعتصم وإن لم ينل في صباه الباكر نصيباً وافراً من الدراسات اللغوية إلا أنّ ثقافته الأدبية لم تكن ضعيفة فقد أثر عنه إنتاج القول البليغ الموجز والتفاعل مع الشعر الجيد والتأثر به .

وعرف الواثق بقوة ثقافته الأدبية حتى قيل: إنه لم يكن في خلفاء بني العباس أكثر رواية للشعر منه[2]، ويؤكد بعض أدباء العصر تميزه بغزارة الأدب يقول أبوعبدالله النديم : «لقد رأيت الملوك في مقاصيرها ومجامعها وما رأيت أغزر أدباً من الواثق[3] وذلك قول يعطي مؤشراً على نبوغ الواثق في ميدان الأدب إلا أنه كسائر الأقوال التي ترد في سياق مناقب الأشخاص لا تخلو من المبالغة في كثير من الأحوال، وفي الواقع ليس هناك ما يدعو للتساؤل عن سبب نبوغ الواثق الأدبي والعلمي، في حين أنَّ والده ممن تقل ثقافتهم الأبية.. إذا أدركنا أن المأمون قد أشرف على تربيته وتعليمه حتى إنه كان يعلمه الأدب بنفسه ويقرئه القرآن وهو ما كان الواثق يعتز به حيث يقول في معرض الافتخار «ألست تربية المأمون»[4].

(١) المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص٦٠ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٧٤ .

(٣) القلعي : تهذيب الرياسة ، ص٣٨٢ .

(٤) العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١١١ - ١١٢ .

وحتى بعد الخلافة استمر الواثق في طلبه لعلوم اللغة والأدب وغيرها من العلوم والفنون .. فظهر حريصاً على معرفة ما لدى اللغويين من إفادات وآراء حول بعض المسائل والمعاني .. فقد طلب إحضار بكر بن محمد المازني[١] وأرسل إلى العلامة محمد بن زياد الأعرابي وهما من أبرز العلماء اللغويين في ذلك العصر[٢].

كذلك عرف المتوكل بميله للأدب ومعرفته لدقائق اللغة يذكر ياقوت أنه كان يمتحن من يراه بما يقع في الأخبار من غريب اللغة[٣] .

ويقف بعض مؤرخي الأدب عند الخليفة المعتز فيصفه بالشاعر المجيد ويرى أنه لو امتدت به الخلافة لكان مثل ابنه عبدالله في خصب ملكاته الشعرية[٤] .

إن كلمات المعتز وأحاديثه مثل خطابه في جماعة من أهل المشورة في سامراء تسمح لنا بالقول : إن هذا الخليفة قد تميز بالفصاحة والبصر باللغة العربية حيث استعمل الفاظاً بليغة وعبارات فصيحة يتجلى ذلك في قوله .. على سبيل المثال : «.. أما تنظرون إلى هذه العصابة التي ذاع نفاقهم وغار شأوُهم الهمج الطغام والأوغاد الذين لا مسكة بهم ولا اختيار لهم ولا تمييز معهم قد زين لهم تقحم الخطأ سوء أعمالهم فهم الأقلون وإن كثروا . والمذمومون إن ذكروا[٥] ...» .

ويقول في وصف رجال اختارهم لبعض المهمات .

«أحدهم شديد الشكيمة ماضي العزيمة ، لا تبطره السراء ولا تدهشه

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص٩٢ - ٩٣ .

(٢) ياقوت : معجم الأنباء ، جـ١٨ ، ص١٩٣ .

(٣) ياقوت : المصدر نفسه ، جـ ٧ ، ص١٣٠ - ١٣١ .

(٤) شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص٣٧٢.

(٥) الطبري : تاريخه ، جـ٩ ، ص٣٦٦ .

الضراء لا يهاب ماوراءه ولا يهوله ما تلقاءه إن حرك حمل وإن نهش قتل عُدته عتيده ونقمته شديدة يلقى الجيش في النفر القليل العدد بقلب أشد من الحديد طالبٌ للثأر لا يفله العساكر[1] ..» وهي أقوال تعكس تميز المعتز بالفصاحة وقوة البيان .. وامتلاك حصيلة لغوية رفيعة .

ومن المؤكد أننا سوف نرى صوراً ونماذج كثيرة من أقواله وأفعاله لو أمتد به العمر وطال أمد خلافته ، إن فصاحة المعتز تلك قد جاءت كثمرة طبيعية لجهود والده في تأديبه ، وتدل من جانب آخر على أنَّ ما ابداه المعتز في بداية تعلمه اللغة والنحو على يد يعقوب بن السِّكِّيت من عدم إيجابية وعدم اكتراث لم يستمرا .. حيث تروي بعض المصادر أن يعقوب بن السِّكِّيت سأله وهو يدرسه النحو بما تحب أن تبدأ فقال : بالانصراف فقال : فأقوم ، فقال المعتز : فأنا أخاف منك وبادر فعثر فسقط وخجل ، فقال : يعقوب :

يموت الفتى من عثرة بلسانه   وليس يموت المرء من عثر الرجل
فعثرته بالقول تذهب رأســه   وعثرته بالرجل تبرأ على مهل[2]

ولا تتوقف آثار المعتز بالله الثقافية فقط عند المقالات والخطب، بل لقد روي له شعر قليل أغلبه في غرض الغزل وهو شعرٌ يُعكس تدني اهتمامات الخليفة الذي كان أسير واقع أليم يتطلب المواجهة الجادة على الأصعدة كافة وفي غمرة ذلك الواقع كان المعتز قلقاً من بعض قادة الأتراك[3] .. لا يستطيع إجابة

---

(١) الطبري : المصدر نفسه ، جـ٩ ، ص٣٦٧ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٢ ، ص١٨ - ١٩ ، تفيد رواية أخرى أن الأبيات للمعتز في حادثة له مع الزبير بن بكار ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١١، ص١٦ - ١٧ .

(٣) انظر : المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص١٧٧ .

طلب والدته بالثأر من قتلة المتوكل[١] .. وكان المفترض أن يوجه شعره إلى الموضوعات التي تجسد مأساته ومأساة الخلافة .

والحق أنه بميوله تلك إلى الشعر الغزلي بمضامينه الماجنة كما في الأبيات التي يذكرها ابن العمراني[٢] يعبر عن اتجاهات موجودة من زمن ضمن المحيط الملاصق للخلافة وهو كأي فتى ينشأ وسط هذا المحيط سوف يكون عرضة للتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك .

وغير خاف على أي متابع لظروف الخلافة يومئذ .. أن النفوذ الديني للخليفة هو أبرز ما تبقى للخلافة وبناءً على ذلك كان مطلوباً من الخليفة أن يُظهر جدارته بتمثيل الدين الذي تعد الخلافة - نظرياً - حارسة له مدافعة عنه، كذلك كان مطلوباً مراعاة العامة وتجنب ما ينفرها من الخليفة ، ومن ذلك تلك الميول والاتجاهات التي تُنْبئ عن ذوق مترف ومجون ممقوت غلب على المعتز.. فإنَّ خلفه المهتدي بالله قد اكتسب أدبه الجدية وحلية الوقار يعكس ذلك قوله :

الله فـي كـل الأمـر حسبـي
يعلم إعـلانـي ومـا في قلبـي
أما والذي أعلى السمـاء بقـدر
وما زال قدماً فوق عرشه قد استوى

---

(١) يروى بعض المؤرخين أن قبيحة زوجة المتوكل الأثيرة رفعت لابنها المعتز قميص المتوكل تحرضه على الانتقام من قتلة أبيه ، فقال لها : يا أماه ارفعي القميص وإلا صار قميصين . الزمخشري : ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ، بغداد ١٩٨٢م ، جـ٤ ، ص٣٣ .

(٢) الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١٣٠ - ١٣١ .

لئن تم لي التدبير فيمـا أريـده
لتفقدن الترك طراً فـلا تـرى[١]

ولما كان المهتدي قد حمل قضية إصلاح أوضاع الخلافة وحاول مواجهة الأتراك فقد ترك ذلك أثراً عند بعض المثقفين الأدباء فندبوه ورثوه .. ورأى بعضهم أن اشتغالهم بالنحو والشعر ، وخليفة المسلمين قتيل مجندل .. مما لا يليق[٢] ، مما يدل على تفاعل تلك البيئة الثقافة العلمية مع خليفتهم في مسعاه الإصلاحي وما زال إلا لقناعتهم بجديته ولتأثير أدبه شعراً ونثراً فيهم .

وأخيراً نقول إن الأدب غير مفارق لمجالس الخلفاء ومنتدياتهم، فقد استمر تثقف الخلفاء أدبياً من خلال هذه القناة بوساطتها وقف الخلفاء على موضوعات أدبية ومسائل لغوية ونحوية .. مما أسهم في نمو الثقافة الأدبية عندهم .

٤ - الثقافة التاريخية عند الخلفاء :

من مكونات ثقافة الخلفاء «التاريخ» فهو المجال الذي أراد العباسيون من خلال رواية أخباره التأكيد على قربهم من النبي ﷺ والطبيعة الانقاذية لحكمهم[٣].

لقد تلقى الخلفاء الثقافة التاريخية من آبائهم ومؤدبيهم وجلسائهم من خلال قراءة المصنفات التاريخية ومنها ما ترجم من كتب في سير ملوك الفرس وأخبارهم ، تذكر بعض الروايات أن أبا جعفر المنصور طلب من محمد بن

(١) المرزباني: معجم الشعراء ، تحقيق عبدالستار فراج ، دمشق ، جـ١١ ، ٢٣ .

(٢) انظر : ابن كثير البداية والنهاية ، جـ١١ ، ص٢٣ ، وقول القائل :

إمامكم أضحى قتيـلاً مجنـدلاً   وقد أصبح الإسـلام مفتـرق الشمـل
وأنتم على الأشعار والنحو عكفاً   تصيحون بالأصوات في أحسن السبل

(٣) انظر مثلاً خطبة أبي العباس السفاح لما بويع خليفة خليفة سنة ١٣٢هـ في الكوفة ، الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٦ ، ٨٢ - ٨٤ .

إسحاق بن يسار علامة المغازي تصنيف كتاب في التاريخ إبتداء من خلق آدم عليه السلام إلى عصره[1] .

وساق الميل نحو البحث في التاريخ والنظر في رواياته أبا جعفر المنصور إلى استرجاع مسيرة الأمويين .. والبحث في أسباب زوال الملك عنهم .. يروي المسعودي أنه قال في مجلس ضم بالإضافة إليه سبعة من أبناء الأسرة العباسية «.. لم تزل بنو أمية ضابطين لما مُهد لهم من السلطان يحوطونه ويحفظونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع كسبهم معالي الأمور ورفضهم أدانيها ، حتى أفضى الأمر إلى ابنائهم المترفين فكانت همتهم قصد الشهوات ، وركوب اللذات ، من معاصي الله عز وجل ، جهلاً منهم باستدراجه وأمناً لمكره ، مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الله .. وضعفهم عن السياسة فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة»[2] .

ولا يخفى أن أبا جعفر هنا يريد أن يتعظ العباسيون بأسلافهم ، وأن يعوا تجربتهم فمثلما كان أبو جعفر مسهماً بفاعلية في بناء الدولة وتكوين منظومتها الإدارية كان أيضاً مؤسساً لمفاهيم بعيدة الغور استوحاها من مسيرة التاريخ وكذلك كان أبو جعفر داعية للاستفادة والنظر في التجارب التاريخية .

وإذا انتقلنا من المنصور إلى المعتصم وخلفائه في سامراء نلحظ وجود قدرٍ من الاهتمام برواية التاريخ معبرين بذلك عن وعي وإدراك لأهميته، ومما يتجلى فيه ذلك الاهتمام إفساحهم المجال لمن يروي لهم بعض الأخبار والروايات التاريخية، فمثلاً نجد المعتصم يستمع إلى حديث أبي طالب لقريش من أحمد بن

(١) البغدادي : تاريخ بغداد ، ١/٢٢١ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ٣ ، ص٢٩٦ - ٢٩٧ .

أبي داؤد الذي ختم حديثه للمعتصم بدعوته إلى النظر في العواقب ، كما دعا أبو طالب قريشاً إلى ذلك وأشار إلى المماليك واحتمال تحزبهم بالأعمال وجمعهم للمال ومن ثم «ينفردون بالكلمة»[1] وهو ما أصبح واقعاً بعد سنوات من رحيل المعتصم .

كذلك استعرض الواثق مع جلسائه أحوال البرامكة مع الرشيد وقد أدى عرض هذه الصفحة من التاريخ العباسي القريب إلى أن يحذو الواثق حذو جده الرشيد ، فينكب كتابه حيث أوقع بهم وأخذ منهم الأموال[2] .

وفي مجلس المتوكل استمع الخليفة إلى حديث عن سيرة عمه المأمون حيث ذكر يحيى بن أكثم جوانب من هذه السيرة تضمنت ذكر محاسنه وعلمه ومعرفته ونباهته حيث أفاض بالحديث عنه بشكل لم يرق لبعض من حضر المجلس[3] .

وإذا كانت الموضوعات التاريخية قد أفسح لها المجال لتروى في مجلس الخليفة فلا شك في أن معطياتها ودروسها الكثيرة قد انسابت إلى وعي أولئك الخلفاء لتكون جزءاً من مدركاتهم وثقافتهم ، وفي مقدمة تلك الموضوعات ما يتعلق بتاريخ الدولة العباسية ، فمن المؤكد أن الخلفاء العباسيين قد اطلعوا على سير آبائهم ومآثرهم المحفوظة في خزائن دار الخلافة ، ومن تلك المحفوظات سفط أبي جعفر المنصور الذي فيه دفاتر علمه وهو ما وصى به أبو جعفر ولي عهده ونجله المهدي قائلاً : انظر هذا السفط فاحتفظ به فإن فيه علم أبائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة[4] .

(١) ابن وادران : تاريخ العباسيين ، تقديم وتحقيق المنجي الكعبي ، ص٤٩٠ .
(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٩ ، ص١٢٦ - ١٢٨ .
(٣) الطبري : المصدر نفسه ، جـ٩ ، ص٢٣٣ .
(٤) الطبري : المصدر السابق ، ص٨ ، ص١٠٣ .

كما أن مآثر ملوك الفرس وأخبارهم مما وصل إلى الخلفاء عن طريق الترجمة حيث ترجم جزء كبير من التراث الفارسي ومنه ما يتعلق بتاريخ الملوك الساسانيين .

فعلى سبيل المثال ترجم المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ) عهد أردشير بشكل منظومة شعرية[١] ، ومعلوم أنَّ البلاذري من ندماء الخليفة المتوكل على الله[٢] مما يرجح أن ماصنعه البلاذري قد حظي بدعم الخليفة من أجل أن يسهل عليه مراجعة هذا الأثر الفارسي .

وثمة روايات وقصص طرحت أمام الخلفاء بقصد الامتاع والإيناس ، ومن ذلك ما يذكره المسعودي عن المستعين حيث استمع لأخبار العذريين وقصة عروة بن حزام[٣] مع عفراء بنت عقال[٤] ، وهي قصص وأخبار صنع الرواة معظم عناصرها ؛ ومن ثمَّ نشروها بين الناس، وأياً كان الأمر فإن استلاب حقوق الخليفة ومصادرة ماله من اختصاصات مما أدى إلى تشاغل بعض خلفاء المتوكل بمثل هذه الروايات .

وعلى الرغم من أنّ الثقافة التاريخية قد أخذت طريقها إلى مسامع أولئك الخلفاء ممن كان بيدهم تصريف الأمور والأحوال . إلا أن دروس التاريخ الكثيرة لم تؤد إلى بناء سياسات مرسومة للمحافظة على استمرار قوة الدولة العباسية بل ترينا الوقائع التاريخية العائدة للفترة موضوع البحث أن بعض

(١) انظر : النديم : الفهرست ، ص١٢٦ ، يا قوت : معجم الأدباء ، جـ٥ ، ص١٠٠ .
(٢) ياقوت ، المصدر نفسه ، جـ٥ ، ص٩ .
(٣) عروة بن حزام أبو سعيد كان شاعراً مغرماً بابنة عمه يقول فيها الشعر ، انظر : ابن كثير البداية ، جـ٧ ، ص٢٢١ .
(٤) مروج الذهب ، جـ٤ ، ١٥٦ .

الخلفاء اتخذ قرارات مصيرية حاسمة دون أن يتعظ من التاريخ نعني بذلك المعتصم الذي استكثر من الأتراك في جيشه دون أن ينتبه لمخاطر ذلك، وكان يظن أن تلك الخطوة من سبل تقوية الدولة فإذا هي من أبرز عوامل تدمير هيبة الخلفاء وضياع سلطتهم السياسية[1]، كذلك كرر المتوكل خطأ الرشيد عندما ولى العهد لبنيه الثلاثة المنتصر والمعتز والمؤيد وقام بتقسيم الدولة بينهم مكرراً ما فعله جده الرشيد[2] .

ويعني ذلك أن الثقافة التاريخية التي حازها أولئك الخلفاء لم تدفعهم إلى بناء استراتيجية واقعية هدفها المحافظة على قوة الحكم العباسي ، تأخذ بعين الاعتبار وسائل تقوية الحكم ومحاربة عوامل التفسخ والانهيار وهي العوامل التي تنبيء عنها دروس التاريخ وعظاته ؛ لأنه من خلال تصفح أحداث التاريخ يمكن اكتشاف مزيدٍ من السنن والقوانين التي تكفل استمرار حالة القوة والنشاط في الدولة .

٥ - رسوم الساسانيين وآدابهم جزء من ثقافة الخلفاء :

عرفت الدولة الساسانية برسومها السياسية والإدارية وبملوكها وحكمائها وكان أول أولئك الملوك أردشير بن بابك بن ساسان ، ولئن زالت تلك الدولة بفضل الفتوحات الإسلامية ، فإن تراثها الفكري والسياسي والإداري ظل باقياً محفوظاً عند الفرس الذين دخل أغلبهم في الإسلام[3] ، وكان من الطبيعي أن

(١) انظر : شاكر مصطفى : دولة بني العباس ، جـ٢ ، ص٤١٦ .

(٢) انظر : الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج٩ ، ص١٧٦ ، وانظر : الليميلم : نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية ، جـ٢ ، ص٤٦٢ .

(٣) انظر : المسعودي : التنبيه والإشراف ، ص١٠٨ .

يتأثر العباسيون بهذا التراث، فالدولة العباسية اتكأت على تأييد ودعم سكان خراسان الفرس لها واعتمدت في دواوينها على الكتاب الفرس الذين جهدوا في الترويج لتراث الساسانيين ورسومهم وتزيينه أمام الخلفاء[1] ، فعرضوا ما أرادوا منه ليبدو زاهياً جميلاً ونسبوا إلى ملوكهم الحكم الرائعة والسياسة الحكيمة[2] .

وعند دراستنا لمجمل أنساق الثقافة التي درسها الخلفاء وتأثروا بها ومالوا إلى الأخذ ببعض رسومها وتقاليدها، نلحظ أن الرسوم والعادات والآداب عموماً تحتل مكانتها بين الأنساق الثقافية التي تأثر بها الخلفاء ودرسوها وأخذوا ببعض عاداتها وتقاليدها يؤكد ذلك ما يلي :

١ - أن وصايا بعض ملوك الفرس أصبحت من المواد التعليمية التي تلقى بعض الخلفاء قدراً منها فقد كان عهد أردشير بن بابك مؤسس الدولة الساسانية مما درسه الخليفة الواثق في صباه حتى حفظه عن ظهر قلب[3] كما مربنا .

٢ - لم تخل مجالس الخلفاء من الاحتفاء ببعض التقاليد والعادات الفارسية أمام بعض الخلفاء كما في مجلس الخليفة المتوكل[4] ، يروي بعض المؤرخين أن الهدايا قدمت له في مناسبتي النيروز والمهرجان[5] ، ويبدو أن بعض

---

(١) كان بين هؤلاء الكتاب شعوبيون متعصبون للعجم على العرب مثل سهل بن هارون متولي خزانة الحكمة في عهد المأمون ، انظر : معجم الأدباء ، جـ١١ ، ص٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) انظر : أحمد أمين : ظهر الإسلام ، جـ١ ، ص٧٤ .

(٣) انظر : المبرد : الفاضل ، ص٤ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٢ ، ص١٠٩ .

(٤) انظر : ياقوت : معجم الأدباء ، جـ١٥ ، ص١٦١ .

(٥) انظر : التنوخي : نشوار المحاضرة ، جـ٨ ، ص٢٤٦ ، الشابشتي الديارات ، ص٥٧ . والنيروز : هو اليوم الجديد من السنة الإيرانية وهو عيد من أعياد الفرس، والمهرجان هو اليوم السادس عشر من شهر مهر، وهو أكبر عيد بعد النيروز، محمد ألتونجي: المعجم الذهبي (فارسي - عربي)، ص٦٢١-٦٤٨.

عناصر البيئة الثقافية المقربة من المتوكل مارست التحريض على إجلال مثل هذه المناسبات يتجلى ذلك في قول علي بن الجهم الشاعر مخاطباً المتوكل:

اغتنم جدة الزمان الجديد واجعل المهرجان أيمن عيد[1]

وذلك مما أثار أبي السمط فقال: «إنما العيد ما يعبدُ الله به مثل الفطر والأضحى والجمعه وأيام التشريق فأما المهرجان والنيروز فإنَّما هما أعياد المجوس»[2] .

٣ - من العادات والتقاليد الشائعة عند الساسانيين وغيرهم الأخذ بالتنجيم ، فقد كانت طوائف المنجمين والكهان تحيط بملوكهم[3] .

ومع تحريم الشريعة لصور التنجيم كافة التي عن طريقها يتم ادعاء علم الغيب إلا أنه[4] لا مفر من القول بأنَّ أخبار المنجمين وتوقعاتهم المستندة إلى حركة النجوم وأوضاعها المختلفة تمثل جانب سلبياً حرص عليه بعض الخلفاء، وقد أحاطوا أنفسهم بالمنجمين ومن هؤلاء : علي بن يحيى المنجم وأبو معشر البلخي[5]، وقد روج المنجمون لكتب عرفت بكتب الملاحم تتضمن توقعات وأخبار عما سيجري في المستقبل . يروي الطبري عن علي بن المنجم أنه كان يقرأ على المتوكل كتاباً من هذه الكتب[6]، وهي كتب صنعها المنجمون مستندين فيها إلى أحكام النجوم، وقد كان في الدولة العباسية كتبٌ متداولة من هذا القبيل[7] .

---

(١) انظر ديوان علي بن الجهم ، تحقيق خليل مردم بك ، ص٣٣ .

(٢) الأصبهاني : الأغاني ، جـ٢٣ ، ص١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) راجع آرثركريستنن : إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب وعبدالوهاب عزام ، ص١٦٧ - ١٨٦ .

(٤) انظر : ابن تيمية : الفتاوى ، جـ٣٥ ، ص١٧١ .

(٥) ياقوت : المصدر السابق ، جـ١٥ ، ص١٦٢ ، ١٦٣ ، التنوخي : نشوار المحاضرة ، ص٨ ، ص٥٧ .

(٦) تاريخ الأمم والملوك ، جـ٩ ، ص٢٢٩ .

(٧) ابن خلدون : المقدمة ، ص٤١٦ ، ٤٢٠ - ٤٢١ .

وإذا كانت أخبار المنجمين وتخرصاتهم قد وجدت صدى عند بعض الخلفاء فإن خلفاء آخرين قد ضربوا عرض الحائط بأقوالهم وما ذهبوا إليه فعندما تجهز المعتصم لفتح عمورية زعم المنجمون أن الجيش سيكسر ؛ لأن الخروج كان في طالع نحس [1] وحكموا بأنَّ المعتصم لا يفتح عمورية وراسلته الروم بأننا نجد في كتبنا أنَّه لا يفتتح مدينتنا إلا في وقت إدراك التين والعنب وبيننا وبين ذلك الوقت شهور ، إلا أنه رفض كل هذه التخرصات والأقاويل التي يأباها الشرع الحكيم ، فيم وجهه نحو عَمُورِيَّة وبعد جهد جهيد تمكن من فتحها مبطلاً ما قاله المنجمون وما سطرته كتب الروم وإلى ذلك يشير أبو تمام عندما يقول :

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف   في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة   بين الخمسين لافي السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما   صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصاً وأحاديث ملفقة   ليست بنبع إذا عدت ولا غرب[2]

ولا شك أن الثقافة التي أفرزها المنجمون وأشاعتها كتبهم كانت غثاءً مضراً أصبح هاجس بعض الخلفاء يتبعه، وكان الأولى أن تبذل الجهود لدراسة أوضاع الدولة ، ودراسة الأساليب التي يمكن بوساطتها المحافظة على قوتها ومحاصرة عوامل الهدم ومسببات الضعف .

إن تلك العادات والتقاليد المقتبسة من الموروث المحلي القديم لبلاد فارس

---

(١) انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء ، جـ١٠ ، ص٣٠٣ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٦٩ .

(٢) انظر : ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، ط٣ ، مصر ، دار المعارف ، جـ١ ، ٤٠ - ٤٢ .

روج له كما قلنا : الكتّاب الفرس وبعض الندماء الذين أحاطوا بالخلافة، وجزءٌ منهم لا يختلف في الواقع عن التيار المنافر الهدام الذي يعلن العداء السافر للشريعة الإسلامية، سوى أن الأولين يدفعون بنموذجهم الثقافي وموروثهم المحلي إلى الساحة بطريقة عملية أكثر هدوءاً ورصانة .

وبعد استعراضنا لأبرز مكونات الثقافة عند الخلفاء في الفترة موضوع البحث ، وقفنا على تباين مستوياتهم الثقافية ومقدار ما حازه كل واحد منهم من علوم، ويلحظ أن بعض المصادر تعطي صورة قاتمة عن ثقافة بعض الخلفاء ، في حين تعطي مصادر أخرى صورة معاكسة ، يصدق ذلك عن الخليفة المستعين الذي يقول عنه ابن العمراني : «كان رحمه الله يرعى معرفة الأدب ولم يكن يُحْسِنُ شيئاً وكان مغرى بالتصحيفات[1] ، بينما يذكر المسعودي أنه كان «حسن المعرفة بأيام الناس وأخبارهم لهجاً بأخبار الماضين» [2].

ولعل الروايات التاريخية التي استند إليها ابن العمراني قد بالغت في رسم تلك الصورة القاتمة للمستعين ، متأثرة بالقوى التي أثارت الاضطراب في عهده والتي كانت ميالة إلى تشويه سيرته .

كما نؤكد على أن جل الخلفاء حرصوا على اكتساب الثقافة وهذا الحرص يسمح لنا بالقول : إنهم اعتبروا التثقيف عملية مستمرة لا تنقطع وقد جاء اكتسابهم للثقافة ممن يغشى مجالسهم من العلماء والأدباء محكوماً ببعض القواعد التي عبر عنها جد أولئك الخلفاء الخليفة هارون الرشيد عندما يقول للأصمعي: «لا تعلمنا في ملأً ولا تسرع إلى تذكيرنا في خلا واتركنا حتى

(١) الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١٢٦ .

(٢) مروج الذهب ، جـ٤ ، ص١٥٦ .

نبتدئك بالسؤال، فإذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزد إلا أن نستدعي ذلك منك ، وانظر إلى ما هو ألطف في التأديب وانصف في التعليم وأبلغ بأوجز لفظ غاية التقويم»(١) ، كما نؤكد أيضاً أن هناك جوانب من الثقافة اكتسبهاالخلفاء من خلال العمل والممارسة ، فلئن تلقى الخلفاء أو بعضهم علوماً ومعارف متنوعة أصبحت جُزءاً من مكونات ثقافتهم وخبراتهم العلمية ، وذلك من خلال الدرس في الكتاب أو الحوار في مجلس الخلافة أو اللقاء بأهل العلم أو القراءة في الكتاب، فإن هناك لوناً من ألوان الثقافة تلقاه أولئك الخلفاء من قبل الكتاب الإداريين أو القادة العسكريين تلكم هي الخبرات الإدارية والأمنية من حيث أخذ بعض الخلفاء ذلك الضرب من الثقافة من خلال ممارستهم لأعمال إدارية أو قيادية قبل تولي الخلافة، أو من خلال ملازمتهم بعض القادة والكتاب، فمثلاً يفهم من قول المتوكل لإيتاخ الخزري : «أنت أبي وقد ربيتني(٢) » أن المتوكل تلقى منه تربية ذات طبيعة عسكرية وإدارية استناداً إلى أن إيتاخ تولى مسؤوليات عسكرية وأمنية وإدارية فكان مسؤولاً عن الجيش بكل فئاته وعن البريد ودار الخلافة (٣) فهو ذو خبرة إدارية وعسكرية أريد أن يتعلمها المتوكل منه(٤) .

---

(١) انظر : الماوردي : أدب الدنيا والدين ، ص٩١ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٩ ، ص١٦٧ .

(٣) الطبري : المصدر نفسه : الجزء والصفحة نفسها .

(٤) يرى الباحث عبدالله الناجم أن إيتاخ ربى المتوكل ولازمه منذ صغره وهو أمر بعيد إذ أن المتوكل في صباه وحال صغره سيكون منصرفاً إلى الدراسة الأولية كما أنه في هذا السن لن يكون مهيئاً لتلقي الخبرة الإدارية من إيتاخ وإنما يكون ذلك بعد أن ينضج الفتى ويشب عن الطوق ويبلغ مبلغ الرجال . انظر الخلافة العباسية في عهد المتوكل على الله ، ص٥٥ ، وعن مسار العلاقة بين المتوكل وإيتاخ : انظر : عبدالعزيز اللمليم نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية ، جـ١ ، ص٤٥٤ - ٢٦٢ .

ومثل ذلك يقال عن المعتز بالله والوزير الكاتب أحمد بن إسرائيل الأنباري حيث يقول عنه وهو يحاول دفع أذى الترك عنه «إنه كاتبي وقد رباني[1] ..» وباعتبار أنْ الوزير أحمد بن إسرائيل من ذوي الخبرة بدواوين الدولة وإجراءاتها وأسلوب عملها يصح أن نقول : إن المعتز تلقى منه خبرات في هذه الأعمال .

ولا يخفى أن ما يكتسبه الخلفاء من ثقافة إدارية وخبرات قيادية بالملازمة للإداريين والقياديين سوف يتعمق وينمو لدى الخليفة بمباشرته لإدارة الدولة واحتكاكه المتزايد بالطبقة الإدارية .

الآثار الثقافية للخلفاء :

مر بنا عند تناول الثقافة الأدبية واللغوية عند خلفاء هذا الفصل من تاريخ الدولة العباسية الإشارة إلى ما أنتجه بعض الخلفاء من شعر أو كلمات تبين مدى قوة حصيلتهم الأدبية واللغوية .. ولا يخفى أنَّ تلك الأشعار القليلة والكلمات الفصيحة ، هي أبرز الآثار الثقافية التي انتجها الخلفاء ، وثمة آثار لم ترد الإشارة إليها ، ولم يتم تناولها ، ومن ذلك المأثور عن الخلفاء من أدعية أو أقوال حكيمة بليغة لها معانيها ودلالاتها ، وكذلك تلك الخطب أو الكلمات التي عبر بها بعض الخلفاء عن معاناتهم ، ونبدأ بإيراد أمثلة لأدعية وأذكار قالها بعض الخلفاء فمن ذلك قول المعتصم : «اللهم إن أحمدك على النعم التي لا يحصيها غيرك وأستغفرك من الذنوب التي لا يحيط بها إلا عفوك» ويقول وهو يتحدث عن نعم الله : «إنّ ذكر آلاء الله وكثرتها وتعداد نعمه والحديث عنها فرض من الله على أهلها وطاعة لأمره فيها وشكرٌ له عليها فالحمدلله العظيم الآلاء السابغ النعماء بما هو أهله ومستوجبه من محامده القاضية حقه

---

(١) الطبري ، المصدر السابق ، جـ٩ ، ص٣٨٧ .

البالغة شكره الموجبة مزيدة على مالايحصيه تعدادنا ، ولا يحيط بها ذكرنا ، من ترادف منته ، وتتابع فضله ، ودوام طوله ، حمد من يعلم أنّ ذلك منه ، والشكر له عليه (١)» .

كما يؤثر عن المتوكل قوله : «اللهم إنك خلقتني ولم أك شيئاً بقدرتك ثم صيرتني فوق هذا الخلق بعزتك وأنت قادر على أن تزيل هذا كله فارزقهم مني العدل والنصفة وألق في قلبي لهم الرأفة والرحمة» (٢) .

ويؤثر عن المهتدي بالله أنه دعا على من أخل بالدفاع عن الثغور قائلاً : «اللهم إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر ، اللهم تولى كيد من كايد المسلمين ، اللهم فأجرني بنيتي إذ عدمت صالح الأعوان» (٣) .

ويؤثر عن المهتدي بالله أنه كان يدعو على ظالميه قبل أن يقتل يتجلى ذلك بقوله : «اللهم إنه قد صح عن نبيك محمد ﷺ أنَّه قال : ثلاثة لا تحجب لهم دعوة ، دعوة الإمام العادل ، وقد أجتهدت نفسي في العدل على رعيتي ، ودعوة المظلوم وأنا مظلوم ، ودعوة الصائم حتى يفطر ، وأنا صائم ، وجعل يدعو عليهم» (٤)(٥) أي على الأتراك .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٧ ، ص١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) الزمخشري : ربيع الأبرار ، جـ٤ ، ص٢٢٠ ، كذلك يذكر الذهبي أن من أدعية المعتصم قوله «اللهم إني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي» انظر : سير أعلام النبلاء ، ٣٠٦/١٠ .

(٣) انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٩ ، ص٤٠٨ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص١٩٠ .

(٥) أخرج الترمذي في كتاب الدعوات ، الحديث بإسناده عن أبي المدله عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم «ثلاث لا ترد دعوتهم الصائم حين يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم» وقد حسن الترمذي إسناد الحديث . انظر : السنن ، جـ٥ ، ص٣٩ ، واخراجه البيهقي في السنن الكبرى ، جـ١٠ ، ص٨٨.

وتورد بعض المصادر جملاً من المأثورات المنسوبة إلى الخلفاء .. فمن أمثلة ذلك ، قول المنتصر : «والله ما عز ذو باطل ولو طلع القمر من جبينه ولا ذل ذو حق ولو أطبق العالم عليه [1]» وما قاله المعتز أمام جماعة الرأي والمشورة وقد مر بنا جزء مما قاله في ذلك المقام، وقد ذكر أنه : «لا يصلح لقود الجيوش وسد الثغور وإبرام الأمور وتدبير الأقاليم إلا رجل قد تكاملت فيه خصال أربع [وذكر منها] : علم يحجزه عن التهور، وشجاعة لا تفضها الملمات والاستعداد للحوادث، إذ لا تؤمن حوادث الزمان»[2] .

ومن أقوال المهتدي بالله «عاون على الخير تغنم[3]» «تكلم بالحق وقل به فإن الرجل ليتكلم بالحق فينبل في عيني [4]» .

ومما يمكن تصنيفه ضمن الآثار الثقافية العائدة للخلفاء ذلك النوع من الكلمات التي ارتجلها بعض الخلفاء ، وهم يعيشون في ذلك الواقع المر ، ويتجرعون الأسى والحسرة جراء تسلط الأتراك وعسفهم ، فجاءت كلماتهم نابضة بالصدق ، معبرة عن واقع مؤلم ، مبدعة في تجسيد المأساة ، ومن نماذج ذلك قول المستعين لجماعة من قواد الأتراك :

«أنتم أهل بغي وفساد واستقلال للنعم، ألم ترفعوا إلى في أولادكم فالحقهم بكم وهم نحو من ألفي غلام، وفي بناتكم فأمرت بتصييرهن في عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف، وغير ذلك كله أجبتكم إليه، وأدررت عليكم الأرزاق

(١) الخطيب : البغدادي : تاريخ بغداد ، جـ٢ ، ص١٢٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٧ ، ص١٩٦ - ١٩٧ .

(٣) الزمخشري ربيع الأبرار ، جـ٤ ، ص٢٦٧ .

(٤) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جـ١٢ ، ص٥٣٧ .

فعملتم آنية الذهب والفضة، ومنعت نفسي لذاتها وشهواتها إرادة لصلاحكم ورضاكم وأنتم تزدادون بغياً وفساداً [(١)]».

وقول المهتدي بالله وهو يخاطب الأتراك : «قد بلغني ما أنتم عليه من أمري ولست كمن تقدمني مثل أحمد بن محمد «المستعين» ولا مثل ابن قبيحة (المعتز) والله ما خرجت إليكم إلا متحنط وقد أوصيت إلى أخي بولدي ، وهذا سيفي والله لأضربن به ما استمسك قائمة بيدي، والله لئن سقط من شعري شعره، ليهلكن أو ليذهبن أكثركم أمّا دين ؟ أما حياء ! أما رعه ! كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والجرأة على الله ؟ خبروني هل تعلمون أنه وصل إليّ من دنياكم هذه شيئ ، أما إنك تعلم يابا يكباك أنَّ بعض المتصلين بك أيسر من جماعة إخوتي وولدي .. [(٢)]» .

وإذا عدلنا عن هذا النمط من المأثورات الثقافية لنتساءل عن مستوى الخطابة لدى خلفاء هذه المرحلة مقارنة بمستواها لدى الخلفاء الأوائل فيا ترى هل ظهر أولئك الخلفاء الذين نتناولهم بمستوى من سبقهم في مجال الخطابة ؟ .

الواقع أن خلفاء هذه المرحلة نشؤوا في حقبة مزدهرة ركز العباسيون فيها على التأديب بأنها عملية تأهيل تربوي لأبنائهم - كما مر بنا - ومما عنى به المؤدبون تعليم قدر من المواد الدينية واللغوية وكان من أهداف ذلك تأهيل الأبناء لصعود المنابر وإلقاء الخطب، لكن على رغم من ذلك، وعلى رغم من وجود خلفاء على جانب كبير من الثقافة والمعرفة بفنون الكلام ، فإن هذه المرحلة

(١) انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٧ ، ص١٤٢ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٩ ، ص٤٤٢ .

لم تشهد إلقاء الخلفاء لخطب قوية على المنابر ولم تشهد وصايا قوية بليغة يجدد من خلالها الخلف وصايا السلف .

ولم يرو عن الخلفاء خطباً دينية وعظية ، والمتوقع أن يكون للمهتدي بالله إسهام في هذا الجانب إذ تبين بعض المصادر أنه كان يخطب الناس ويؤم بهم[1]، لكن لم تصل إلينا نماذج من خطبه المنبرية .

ويرى بعض مؤرخي الأدب أن الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء قد ضعفت وكذلك الخطابة الحفلية أي تلك الخطابة التي تقال في المحافل الكبيرة وسبب ذلك أن وفود العرب لم تعد تأتي إلى قصور الخلفاء[2] .

وقد أورد الطبري ثناء أحد خواص المتوكل على نجل الخليفة - المعتز - الخليفة فيما بعد -، وذلك بعد أن ألقى خطبة في آخر جمعة من رمضان عام ٢٤٧هـ، وكان مما قاله في معرض الإشادة والتبجيل: «لقد رأيت الأمين والمأمون ورأيت المعتصم ورأيت الواثق فوالله ما رأيت رجلاً على منبر أعذب لساناً ولا أخطب من المعتز..[3] » .

إلا أن هذا القول مبالغ فيه ؛ لأنه قيل أمام الخليفة وابنه المعتز لا يزال شاباً يافعاً ، ولا شك أن بين الخلفاء المذكورين من لا يمكن أن يقارن المعتز به !. فالمأمون مثلاً نموذجٌ في الخطابة لا يجارى وقد وصفه بعض أدباء عصره بالبلاغة وجودة اللهجة والمنطق الذي لا يباري[4] ، ومثله الواثق الذي كان يرتجل

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، جـ٤ ، ص١٨٣ .

(٢) انظر شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الأول - ص٤٥٠ - ٤٥٢ ، ويعزو (ضيف) سبب ضعف الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء إلى أنها كانت تعد لهم من قبل الأدباء ومن ثم أصبحوا يخطبون بكلام غيرهم ، المصدر نفسه ، ص٤٥٢ .

(٣) تاريخ الأمم والملوك ، جـ٩ ، ص٢٢٣ ، والقائل هو داود بن محمد بن العباس الطوسي .

(٤) انظر الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ١ ، ص٥١ - ٦٣ .

الخطب على البديهة من غير أن يتروى في أثناء الكلام ويأخذ وقتاً في التفكير فيما سيقول(١) .

ثقافة الخلفاء وأزمة الخلافة :

فيما سبق تم استعراض المؤثرات على ثقافة الخلفاء ومكونات تلك الثقافة ، وقد درسنا ثقافة خلفاء عايشوا واقعاً سياسياً مريراً تمثل في ازدياد نفوذ الأتراك بدءاً بعهد الواثق ومروراً بعهد المتوكل ثم الخلفاء الأربعة فيما بين عامي (٢٤٧ - ٢٥٦هـ) الذين وقعوا تحت كابوس نفوذ قادة الأتراك ؛ لأن مما تقوم به الثقافة مدى تواصلها مع الواقع السياسي والاجتماعي ، اللذين تنتشر فيهما وتنمو، ومدى إسهامها في معالجة شجونه ومشكلاته، ومدى التفاتها إلى المخاطر المستقبلية التي تلوح في الأفق ، ولا تلك الأزمة السياسية هي أبرز ما واجهته الخلافة من أزمات، لذلك لن نلوي عنان القلم قبل أن نحاول الإجابة على السؤالين التاليين (٢) :

هل تقديم الأتراك وتمكينهم في الدولة يعكس خللاً في الثقافة السياسية والتاريخية عند المعتصم والواثق وهما اللذان تمكن ذلك النفوذ في عهدهما واكتسب مواقع سياسية وإدارية عليا ؟ وهل أدركت عناصر التأثير على ثقافة الخلفاء المخاطر المستقبلية للاعتماد وبدرجة أولى على عصبية واحدة في الجيش، ومن ثم تم تحذير الخلفاء يوم أنْ كان بأيديهم الزمام من مغبة استفحال نفوذ الأتراك؟

---

(١) انظر : ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١١١ .

(٢) لابد أن نشير إلى أن المعتصم ذات قد شكا من قادة الترك معبراً عن الاستياء منهم ويبدو أن ذلك تم في أواخر أيامه .

انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ٧ ، ص٥٢٧ .

وإجابة على التساؤل الأول .. لابد أن نشير إلى أنه كان بين يدي الخلافة تراث تاريخي عريق .. سبقت الإشارة إليه .. هذا التراث منه ما يخص تاريخ المسلمين ومنه ما كان مترجماً عن الفارسية وغيرها .. وقد حمل هذا التراث بين طياته التحذير بشكل إيحائي أو مباشر من مغبة تزايد نفوذ الجند ، وكما أن وصايا المنصور ومأثوراته حملت الدعوة إلى العناية بأهل خراسان باعتبارهم، أعوان الدولة وشيعتها[1] .. والتصرف بحزم إزاء مراكز القوى ذات النفوذ المتنامي .

ومن نماذج التراث الفارسي المترجم الذي عنى به العباسيون «عهد أردشير» الملك الفارسي فهو مما تعلمه الواثق في صباه .. حتى حفظه كما مر بنا[2] ، وقد نظمه نديم المتوكل البلاذري شعراً[3] ربما ليسهل حفظه على الخليفة وأبنائه.

وفي هذا العهد (هُو مجموعة وصايا لمؤسس الدولة الساسانية) [4] أكثر أردشير من الإشارة إلى خطورة تنقل الناس عن حالاتهم وانتقال الأصناف المحيطة بالحكم إلى غير مرتبتها .. وذكر أن ذلك مما يجعل أولئك المنتقلين إلى غير المراتب المعدين لها في تطلع مستمر للمزيد[5] .

لقد خالفت الدولة العباسية في عهد الواثق تحذيرات أردشير ، حيث نقل الواثق بعض قادة الأتراك إلى ميدان الإدارة والسياسة فقد أعطى أشناس التاج

---

(١) انظر : الطبري : تاريخه ، جـ٨ ، ص١٠٣ .

(٢) انظر : المبرد : الفاضل ، ص٤ ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، جـ٢ ، ص١٠٩ - ١١٠ .

(٣) النديم ، الفهرست ، ص١٢٦ .

(٤) انظر : إحسان عباس : مقدمة تحقيق عهد أردشير ، ص٢١ .

(٥) انظر : عهد اردشير ، ص٦٣ - ٦٤ .

والوشاح واستخلفه على السلطنة [1] بل ، أُسْندت وظائف إدارية لبعض الأتراك مما أفسدهم ، وقد يكون هناك نقص في ثقافة المعتصم السياسية أدى إلى قصر نظره في المجال السياسي . يرى بعض الباحثين أن قلة بضاعة المعتصم من العلم أثرت على إدارته للدولة[2] . والحقيقة أن ما نلمسه في عهده من اضطراب إداري ، ووصول إداريين جهلة إلى سدة الوزارة [3] للدولة ، والقسوة المتناهية التي اتبعت مع الإمام أحمد[4] ، ثم المبالغة في الاستكثار من الأتراك وإبراز قادتهم ، وجعل مركز الخلافة إلى جوار ثكناتهم العسكرية ، كل ذلك يمثل انعكاساً لقلة بضاعته في العلوم الشرعية وضعف الثقافة التاريخية والسياسية هذا مع وجود عوامل أخرى كان لها تأثير على أسلوب إدارته للدولة.

وإذا عدلنا عن المعتصم إلى الواثق الذي يدعى «بالمأمون الصغير»[5] لسعة علمه واطلاعه .. فمن الواضح أنه لم يكن قليل البضاعة في علوم التاريخ والسياسة فقد درس عهد أردشير منذ صباه الباكر - كما مر بنا - وتبين بعض المصادر أنه سرد جميع ما فيه حفظاً في مجلس والده - المعتصم [6] وبناءً عليه لم يكن هناك ضعف في ثقافة الواثق السياسية بل كانت المشكلة تكمن في عدم تطبيق تلك النصائح والإرشادات التي حفظها الواثق والإفادة منها أثناء التعامل مع «الأتراك» ، ولقد كانت الفرصة سانحة لتراجع الخلافة

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص٢٧٢ .

(٢) انظر : شاكر مصطفى : دولة بني العباس ، ص٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) مثل الوزيرين الفضل بن مروان وأحمد بن عمار ، انظر : ابن طباطبا : الفخري ، ص٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٤) انظر : حنبل بن إسحاق : ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل ، ص٦١ - ٦٤ .

(٥) ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص١١١ .

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، جـ٢ ، ص١٠٩ .

في عهد الواثق مسألة تنامي نفوذ الجند الأتراك وأن تنتبه إلى المخاطر المستقبلية على الخلافة جراء تزايد ذلك النفوذ .. ومعلوم أنَّ مواجهة ذلك النفوذ المتزايد سوف يتجاوز دائرة الإمكان إلى الصعوبة ثم الاستحالة التامة.

وكما مر بنا فلقد كان بين يدي الخلافة وفي حوزة الخليفة خبرات تاريخية وآراء سياسية يفترض أن تأخذ طريقها إلى حيز التنفيذ غير أنها أغفلت تماماً.. ومما أغفل النظر فيه وصايا أبي جعفر المنصور ، ومنها قوله «إن النوائب غير مأمونة والحوادث غير مضمونة..[1] » .

وأغفل جانب التخطيط للمستقبل والإعداد له ، وفي رأي الدكتور عبدالعزيز اللميلم أن عدم التخطيط للمستقبل وإغفال الدراسة العلمية للواقع السياسي المحيط بالدولة العباسية أدى إلى الفوضى التي وقعت الخلافة في أتونها[2] ، وأي شيئ يعوق الخلافة عن إجراء مثل هذه الدراسات ما دام أنَّ الثقافة الإسلامية العربية يومئذ قد امتلكت الأدوات المنهجية المساعدة على دراسة ذلك الواقع المحيط بالدولة ومحاولة استكناه ما يخبئه المستقبل .

وإجابة على التساؤل الثاني .. وهو عن عناصر التأثير على ثقافة الخلفاء وهل أدركت المخاطر المستقبلية للاعتماد وبدرجة على عصبية واحدة في الجيش وهل حذرت الخلفاء من تلك المخاطر ..؟

لابد أن نضع في اعتبارنا أن من عناصر التأثير مَنْ لايعنيهم مستقبل الدولة العباسية بقدر ما يعنيهم استمرار استفادتهم منها ومن تلك الفئة عددٌ من الأدباء والشعراء ذوي الأغراض النفعية الذين استمع إليهم الخلفاء وهم

(١) الطبري : تاريخه ، جـ٨ ، ص١٠٦ .

(٢) نفوذ الأتراك في الخلافة ، جـ١ ، ص٣٨١ .

يمجدون بعض خطواتهم وقراراتهم ، ومن ذلك الاستكثار من الأتراك يتجلى ذلك في قول علي بن الجهم (الشاعر :

إِمامي مَنْ لَهُ سبعـونَ ألفـاً   مِنَ الأتراكِ مُشْرَعَةَ السِّهامِ
إذا غَضِبُوا لدينِ اللَّه أَرْضَوا   مَاضارِبَ كلِّ هنديٍّ حُسامِ [(١)]

يقابل هؤلاء فئة من رجالات الدولة وكتابها تمكنت من التقاط المؤشرات والبوادر المنبئة عن حدوث مخاطر كامنة في الاستكثار من الأتراك والتمكين لهم ومن ثَّم قامت تلك الفئة بتنبيه الخلافة إلى تلك المخاطر .

ومن ذلك ما يروي عن ابن أبي داؤد أنه قال للمعتصم «كأني يا أمير المؤمنين أنظر إلى هذه المماليك وقد تحزبوا بالأعمال وجمع المال ، وإدخالهم العجم في العمال وإبطالهم العرب من الدواوين والأعمال حتى ينفردوا بالكلمة إليهم دون غيرهم فتصير سادتهم لهم أذناباً ودورهم خراباً[(٢)] » ، ولما اشتكى المعتصم من عدم نجابة قادة الأتراك وفشلهم في حين نجح المأمون في اصطناع قادة استمروا على ولائهم لهم ، لما اشتكى من ذلك أجابه إسحاق بن إبراهيم[(٣)] (قائد الشرط ببغداد) قائلاً : نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت

(١) انظر ديوان علي بن الجهم ، ص١٢ ، ومما مَجَّدهُ أولئك الشعراء قرار المتوكل بتولية العهد لثلاثة من أبنائه وتقسيم الدولة بينهم تلك الخطوة التي أوجدت الفتنة وكانت تكرار لخطوة مماثلة جرت في عهد الرشيد ، انظر، بعض النصوص الشعرية التي قيلت في هذه المناسة ، عند الطبري ، تاريخ ١٨١/٩، المسعودي : مروج الذهب ، ٨٧/٤ .

(٢) انظر : ابن وادران : تاريخ العباسيين ، ص٤٩٠ .

(٣) هو قائد الشرطة ببغداد أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل إلى سنة ٢٣٥هـ حيث مات في تلك السنة ، انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ٧ ، ص٥٢ .

واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها[1] في إشارة إلى قادة الأتراك وهو قول ينبئ عن أنَّ إسحاق بن إبراهيم يريدُ أنْ يلفت نظر المعتصم إلى أن أولئك الأتراك غير جديرين بخدمة الدولة حيث لا أصول لهم ولا سابقة .

وإلى جانب تلك التنبيهات التي قيلت والنفوذ التركي يتأسس وتكون له قاعدة عسكرية بجانب الخلافة .. جاءت إنذارات وتنبيهات أخرى من ثقافة المعارضة التي لابد أن تصل بشكل أو بآخر إلى الخلافة وهو ما نلمسه في كتاب الفتن ، لنعيم بن حماد المروزي (ت٢٢٩هـ) حيث يرى نعيم بن حماد أن أول علامة من علامات انقطاع الحكم العباسي خروج الترك، مورداً الروايات المتعلقة بهذا الشأن[2] . وهذه الآراء وغيرها كانت تشع به ثقافة المعارضة حينئذ، لابد أن تكون قد وصلت إلى الخلافة سواءً حملتها عناصر التأثير أو اطلع عليها الخلفاء بأنفسهم .

وخلاصة القول بعد ذلك : إن ثقافة المعتصم المحدودة قد تركت أثرها على إدارته للدولة ومبالغته في الاستكثار من الأتراك ، وإن الواثق لم يعالج ظاهرة النفوذ التركي في ضوء ثقافته التاريخية والسياسية ، بل لقد منح أولئك القادة الأتراك مزيداً من النفوذ، ولم يمنح ثقافته البعد التطبيقي المطلوب.. أما العناصر المؤثرة فهناك فئة تمكنت من التقاط المؤشرات والبوادر المنبئة عن وجود

(١) انظر : الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، جـ٩ ، ص١٢٢ .

(٢) الفتن ، تحقيق سمير أمين الزهيري ، مكتبة التوحيد ، القاهرة ، جـ١ ، ص٢١٩ . ويرى فاروق عمر أن نعيم بن حماد ربما كان يعبر عن مخاوف الناس وتنبئهم بمصير الخلافة وأن لم يصل نفوذ الأتراك في عهد المعتصم إلى حد السطوة والجبروت ، راجع : فاروق عمر : الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ، ص٦٢ .

أزمة سوف تعبر إليها الخلافة بسبب كثرة الأتراك وتزايد نفوذهم ، وأخيراً وقبل أن ننهي هذه الدراسة لابد من أن نقول :

إن الخلافة في المرحلة التي سبقت مرحلة تفاقم النفوذ التركي بعد مقتل المتوكل كانت بأمس الحاجة إلى تطبيق وتمثل معطيات الثقافة الشرعية والتاريخية والسياسية ، لا لمعالجة ظاهرة تزايد نفوذ الأتراك فقط، وإنما لايقاف التدهور الاقتصادي والمالي والإداري ..

المصادر والمراجع

أ - المصادر :

- ابن أبي أصيبعة : أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم (ت٦٦٨هـ)
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ، دار مكتبة الفكر، ١٣٥٧هـ
- ابن أبي الحديد : أبو حامد عبدالحميد المدائني (ت ٦٥٥هـ) .
شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
- ابن الأثير : عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ) .
الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٥هـ .
- الأصبهاني : أبو نعيم أحمد بن عبدالله (ت ٤٣٠هـ) .
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، القاهرة ، ١٣٥٨هـ .
- الأصبهاني : أبو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦هـ) .
الأغاني ، القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٣٠م .

- البيهقي : إبراهيم بن محمد : المحاسن والمساوي ، بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر (د . ت) .
- التنوخي : أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ) .
نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت ١٣٩١هـ.
- الجاحظ : عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) .
البيان والتبيين ، بيروت ، دار الكتب العلمية (د . ت) .
- ابن الجهم : علي بن الجهم الشاعر (ت ٢٤٩هـ) .
ديوان علي بن الجهم ، تحقيق ، خليل مردم بك ، بيروت ، دار الآفاق ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ .
- ابن حبيب : محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ه-) .
المحبر ، باعتناء الدكتورة ايلزه شتيتر ، حيدر آباد ، ١٣٦١هـ .
- ابن حجر : أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) .
تهذيب التهذيب ، ط١ ، الهند ، حيدرآباد ، ١٣٢٥هـ .
- الحصري : إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ) .
زهر الآداب وثمر الألباب ، ط٢ ، تحقيق علي البجاوي ، القاهرة ، مكتبة البابي الحلبي ١٣٨٩هـ .
- ابن حنبل : حنبل بن إسحاق . (ت ٢٧٣هـ) .
ذكر محنة الإمام أحمد ، دراسة وتحقيق محمد نفش ، القاهرة ، دار نشر الثقافة ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ) .
تاريخ بغداد ، ط٢ ، القاهرة ، دار السعادة ، ١٣٤٩هـ .
تقييد العلم، تحقيق، يوسف العش، ط٢، دار إحياء السنة ١٩٧٤م (د، م).
- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) .
المقدمة ، تحقيق سهيل زكار ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠١هـ .
- الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد ، (ت ٧٤٨هـ) .
سير أعلام النبلاء ، الأجزاء ١٠، ١٢ ، ١٣، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٢هـ .
- ابن الزبير : الرشيد(من علماء القرن الخامس الهجري) .
الذخائر والتحف ، تحقيق ، محمد حميد الله ، الكويت ، ١٩٥٩م .
- الزبيدي : محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ) .
طبقات النحويين اللغويين ، القاهرة ، دار المعارف (د ، ت) .
- الزمخشري : جار الله (ت ٥٣٨هـ) .
ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، تحقيق : سليم النعيمي، بغداد، ١٩٧٦م .
- السيوطي : جلال الدين (٩٠٢هـ) .
تاريخ الخلفاء ، ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ .
- السمعاني : عبدالكريم بن محمد (ت ٥٦٢هـ) .
أدب الإملاء والاستملاء ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د ، ت) .
- الشابشتي : أبو الحسن بن محمد (ت ٥٦٢هـ) .
الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط٢، بغداد، مطبعة المعارف: ١٣٨٦هـ.

- الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٧٦٤هـ) .
الوافي بالوفيات ، جـ٥ ، ط٢ ، باعتناء ، س دريدريبح ، طبع في مطابع دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٩هـ .
- الصولي : أبو بكر محمد بن يحيى (ت ٣٣٥هـ) .
أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق .
عني بنشره ، ج هيورث ، د ، بيروت ، دارالمسيرة ، ط٣ ، ١٤٠١هـ .
- ابن طباطبا : محمد بن علي (٧٠٩هـ).
الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، بيروت، دار صادر (د، ت).
- الطبري : محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) .
تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، نشر دار سويدان ، بيروت ، (د ، ت) .
- ابن طيفور : أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب (ت ٢٨٠هـ) .
تاريخ بغداد ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ .
- ابن العمراني : محمد بن علي (٥٨٠هـ) .
الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ط٢ ، تحقيق قاسم السامرائي ، الرياض ، دار العلوم ، ١٤٠٢هـ .
- القاضي عياض : عياض بن موسى (ت ٥٤٤هـ) .
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك ، تحقيق أحمد بن بكير محمود ، طرابلس ، دار مكتبة الفكر .
- القلعي : محمد بن علي (ت ٦٣٠هـ)
تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، ط١، الأردن، مكتبة المنار، ١٤٠٥هـ .

- ابن كثير : عماد الدين إسماعيل بن عمر (٧٤٧هـ) .
البداية والنهاية ، ط٢ ، بيروت ، مكتبة المعارف ، (د ، ت) .
- الماردي : أبو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ) .
الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.
- المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ) .
الفاضل ، تحقيق عبدالعزيز الميمني ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
- المرزباني : محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٨٤هـ) .
معجم الشعراء ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، القاهرة ، ١٣٧٣هـ .
- المرزوي : نعيم بن حماد (ت ٢٢٩هـ) .
كتاب الفتن : تحقيق سمير أمين زهيري ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة التوحيد، (د ، ت) .
- المسعودي : علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ) .
مروج الذهب ، تحقيق محي الدين عبدالحميد ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
- النديم : محمد بن أبي يعقوب (ت ٣٨٥هـ) .
الفهرست ، تحقيق : رضا تجدد ، طهران ، ١٣٩١هـ (د ، ن)
- ابن وادران : حسين بن محمد وادران .
تاريخ العباسيين، تحقيق: المنجي الكعبي، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- ياقوت : ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٢هـ) .
معجم الأدباء ، ط٣ ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٠هـ .

ب - المراجع :

- ألتونجي : محمد ألتونجي .

المعجم الذهبي (فارسي - عربي) ط٢ ، بيروت ، ١٩٩٣م .

- أمين : أحمد أمين

ظهر الإسلام ، ط٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٦م .

- جواد : مصطفى .

سيدات البلاط العباسي : دار الفكر للجميع ، بيروت ، ١٩٥٠م .

- الزركلي : خير الدين .

الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز ، ط٣ ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٧٧م .

- صالحية : محمد عيسى .

مؤدبو الخلفاء في العصر العباسي الأول، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد الخامس ، المجلد الثاني ، الكويت ، ١٩٨٢م .

- ضيف : شوقي ضيف

تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ، ط١ ، دار المعارف ، مصر (د ، ت) .

- عمر : فاروق عمر

الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ، ط٢ ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٧٧م .

- العوا : عادل العوا
المعتزلة والفكر الحر ، ط١ ، مطبعة الأهالي ، دمشق (د ، ت) .
- عطا الله : خضر أحمد عطا الله
بيت الحكمة في عصر العباسيين، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، (د ، ت)
- عواد : كوركيس .
خزائن الكتب القديمة في العراق ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٤٨م .
- اللميلم : عبدالعزيز بن محمد
نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١١هـ .
- مصطفى : شاكر . دولة بني العباس، الكويت، وكالة المطبوعات (د ، ت) .
- الناجم : عبدالله : الخلافة العباسية في عهد المتوكل على الله ، دراسة تاريخية حضارية، (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، غير منشورة نوقشت في كلية العلوم الاجتماعية عام ١٤٠٥هـ .